

د. أحمد عبد الحويد يوسف

منوعات

٢٠١٩

مصر في القرآن والسنة

أفأ





تصديق أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاء



دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

د. أحمد عبد الحميد يوسف

مَطَرُ فَيِّ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

اقرأ ٣٧٣

دارالمعارف بمطَر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا
أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ »

(هود ٤٩)

إلى العقاد رحمه الله

هول كين مصر رواية لا تنتهى منها يد الكتاب والشرح
فيها من البردى والمزمور والتوراة والفرقان والأصحاح
ومنا وقمبيز إلى إسكندر فالقيصرين فدى الجلال صلاح
شوقى

١

مقصد الأنبياء

قد تبدو للمؤمن بالغيب من الثقة الورعين من أحداث التاريخ أسرار
يردها إلى حكمة لله عز وجل وأمر منه كتب منذ الأزل في اللوح المحفوظ .
لأمر ما قدر الله للمصطفين من أنبيائه ورسله مقادير يجتمعون عليها
ويشتركون فيها ، وموارد إليها يردون ومنها يأخذون . ولأمر ما شاء رب العرش
لأنبيائه أن يخرجوا من تلك البقعة الوسطى من شرق الأرض فيبشروا فيها
بما نزل عليهم من كتب الدين ورسالات السماء ، ولأمر ما شاء رب العرش
أن يقبل أنبياءه على مصر ويردوها فيقيموا فيها ما شاء لهم أن يقيموا أو يكون
لهم بها سبب يعظم أو يهون .

فإذا سلكنا سبيل المؤمنين المستسلمين ونظرنا في هذا نظر الثقة الممثلين
قلنا إن الله حكمة هو بالغها فيما قدر لأنبيائه ومرسله . وبمثل هذا تحدث
إنجيل متى عن رحلة المسيح :

« إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا : « قم ونفذ الصبي وأمه
واهرب إلى مصر . . . لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر
دعوت ابني » (٢ : ١٣ - ١٥) . فهو قضاء سابق أن يدعى يسوع من
مصر ، فليكن إذن رحيله إليها قضاء لأمر من الله سابق سوف يكون .
ولئن بدت الأمور كذلك للمتقين المستمسكين بالإيمان ، دون غيره
فقد يجد المؤرخون أنفسهم - مع إيمانهم - من وقائع التاريخ حيال
أحداث متشابهات وظواهر متكررات تفرض على عقولهم ومناهجهم التساؤل
والاستقصاء ، وتخرج بهم من معلول يستظهرونه إلى علة يطمثون إليها
وإليها يركنون .

على أن سنة القرآن فيما روى من القصص واستعرض من الأحداث أنه إنما ينتقى منها من الشواهد ما يدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، مخلصاً إلى الإيجاز معبراً في القصص عما يريد من الباب الذي يتعمق إلى الأغوار ، محققاً بذلك العظة التي أراغها وقصد إليها من السيرة وروايتها . فلم يكن كتاب الله إذن سجلاً للأحداث ولا كتاباً للتاريخ بمعناه المفهوم ، ولا هو صحيفة من صحائف الأمم ولا شعب من الشعوب ، ولذلك فلسنا نأنس فيه الأسماء الكثيرة ولا تفرع الأنساب والسلالات ، ولا نجد فيه استقصاء الأحداث معدودات مفصلات ، وهو مع ذلك على إيجازه وبيانه خليق أن يحفز على البحث والاستقصاء ، خليق بالنظر فيما أورد من أخبار الأيام والتحقق من أحداث التاريخ .

أخرج جلال الدين السيوطي في كتابه « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » عن ابن زولاق أن مصر ذكرت في القرآن في ثمانية وعشرين موضعاً ، وقال بل أكثر من ثلاثين وقع فيها ذكر مصر من القرآن صريحاً أو كناية ، ونقل عن الكندي تعليقه على طائفة من آياته فيها قوله : « لا يعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله عليه في القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر » .

أجل ، فلقد كانت مصر فصلاً في تاريخ كل دين .
على أرضها كلم الله موسى وبعثه هداية العالمين .
وأقبل عليها يسوع في المهد وكانت به أسبق المؤمنين .
ثم صارت من بعد حصن الإسلام ومعقله الحصين .

* * *

ومن قبل ذلك أقبل عليها أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم ، فأقام بين أهلها يقول لهم ويسمع منهم ثم يخرج بجارية مصرية تكون أمّاً لبكر بنيه . لقد كانت هاجر مصرية تحمل اسماً مصرياً ورد في الآثار المصرية

بما لا يدل على غير تصحيف يسير . إذ تقرؤه في المصرية هاقر وهاقرة^(١) .
وتلد هاجر المصرية إسماعيل الذي باركه ربه فكان صديقاً نبياً ،
ومن إسماعيل تخرج أمة عظيمة هي أمة العرب المستعربين ومنها كانت
قريش زعيمة العاربيين والمستعربين أجمعين .

وقد شاء الله أن يشرف الأصل بالفرع فتشرف هاجر بمولد إسماعيل ،
بل يشاء تخليداً لتلك الفتاة المصرية فيفرض على عباده السعى — كما سعت —
بين الصفا والمروة حاجين أو معتمرين . إذ تأذن ربك للآلاف من خلقه أن
يطوفوا بين الجبلين إذ يتدافعون ما دارت الشمس كل عام مسبحين مهللين ،
وملبين مكبرين ، وأن يظلوا على تدافعهم حتى يرث الأرض ومن عليها وإليه
يرجعون ؛ وأن يكون فرضه هذا من أركان دينه الذي أنزله وارتضاه كافة
للعالمين .

« إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر
فلا جناح عليه أن يطوّف بهما » .

(البقرة ١٥٨)

وكأنما كان خليل الرحمن يدعو لذريته في أرض الحجاز بمثل الذي
رأى من الخير في مصر حين هبط إليها زائراً ، ثم متخذاً من بناتها زوجة
تكون أمّاً لولده إسماعيل بكر بنيه ، وأمّاً للعرب ونبذة لسيد الأنبياء والمرسلين ،
وكأنما تمثل له حين دعا في الحجاز لهاجر ما كانت اعتادت في بلادها التي
هجرتها وأقبلت منها :

« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك
المحرم ، ربنا ليقموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم
من الثمرات لعلهم يشكرون »

(إبراهيم ٣٧)

H. Ranke, Die Ägyptischen Personennamen, (Glückstadt (١)

1935 & 1952) Band I, S. 231.

بمثل الذى رأى فى مصر تفكر ، حين دعا ، إبراهيم .

وإذ كان وما زال ذا زرع وخير عميم .

تهوى إليه مع ذلك أفئدة من الناس بالتجارة والسياحة غادين راثحين

ورزقهم من الثمرات فكانوا — بأسلوبهم وملتهم — شاكرين .

ومن بعد إبراهيم جاء يوسف إذ حمل إليها صبياً فعاش فيها حياته حتى

توفاه الله فى أرضها حيث حنط ودفن إلى حين ^(١) .

وقد كان هبوط يوسف مصر مكانة ونعمة من الله يمن بهما عليه ،

ولو جاء إليها فى مهانة العبودية وذل الإسار ، لأن الله إنما حمّله إليها

« مبعوثاً » يتعلم العلم فى أرضه التى أقام فيها العلم منذ غابر الأقطاب والدهور

قال عز من قائل :

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا

أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل

الآحاديث والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

(يوسف ٢١)

ونشأ فيها موسى حيث ربي وليداً ولبث فيها من عمره سنين « ولما بلغ

أشدّه واستوى آتيناها حكماً وعِلماً وكذلك نجزي المحسنين » ... « فلما قضى

موسى الأجل وسار بأهله أنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا

إني أنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .

فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة

أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين »

(القصص ١٤ ، ... ، ٣٠)

وأما يسوع فقد أتت به مريم تحمله حيث أقامت كما حدث الرواة

ما بين عين شمس وبابلين وقال تعالى :

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين »
(المؤمنون ٥٠)

وكان لرسول الله محمد بن عبد الله - كما كان لأبيه إبراهيم - زوجة
مصرية أو قبطية هي مارية التي أنجبت له ولده إبراهيم ، كما كان له
صلى الله عليه وسلم فيها من أحاديثه الشريفة ما وصى بها الناس بأهلها
وذكر أنهم يكونون على الأعداء نعم الأعوان .
صدق رسول الرحمن .

كذلك كانت مصر التي كان لها نصيب من الذكر الحكيم جليل ،
وحسبها من شرف أنها أثني عليها رب العرش في الذكر المبين ، وأنها كانت
قبة الأنبياء والمرسلين .

ومن قبل الأنبياء ومن بعدهم كانت قبة لمن جاورها من أمم الأرض
وشعوبها ، ومن وفد عليها من التجار وطلاب المعرفة والحكماء . أولئك يطلبون
الرزق بالبيع والشراء ، وهؤلاء يقصدون الحكمة ويتلمسون السناء .

فكان لها دائماً فضل المتفضل على الطالبين والقاصدين ، فلا جرم
تكون مدرسة تلقى فيها فلاسفة الإنسانية وأنبياء الرحمن المرسلين إذ بعثوا
إليها متعلمين قبل أن يبعثوا معلمين ، ولا جرم يكون لها النصيب الأوفى
من عناية الكتاب والمؤرخين .

وسبحان ربك الأكرم الذي أنبت في مصر القرطاس والقلم فجعلها
المدرسة التي فيها علم الإنسان بهما ما لم يعلم . إذ تأذن لأهلها فجعلهم أول من
يكتبون ، وعنهم أخذ الناس القلم وما يسطرون .

٢

إبراهيم

وقد كان إبراهيم عليه السلام أقبل من حيث يقيم في فلسطين على مصر يطلب فيها الشبع والرى من بلاد ضربها القحط والجفاف . وقد تحدثت التوراة في ذلك قالت : « وحدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً » (تكوين ١٢ : ١٠) ، وكان مجيئه إليها على الأرجح والمشهور أيام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى في القرن العشرين من قبل مولد المسيح ، حيث هبط على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور ، إذ كانت قوافل التجارة ترد على مصر وتصدر عنها بما تحمل من العروض التي تحتاج إليها مصر أو تطلبها سوريا وفلسطين ، ولقد كانت حاجة مصر إلى الحديد من الأخشاب خاصة دافعاً لأهلها على تلمسه من مظانه في فينيقيا (لبنان) منذ طلائع تاريخهم ، حتى لقد تسمت بعض أنواع سفنهم بحكم انتظام الرحلات إلى فينيقيا باسم ميناء جيل هناك فسميت الجبيلية ، ومن أنباء سنفرورأس الأسرة الرابعة أنه أرسل قافلة من أربعين سفينة لجلب خشب الأرز منها ^(١) . كذلك كان العثور منذ فجر التاريخ على الحلى من اللازورد الكريم في مصر ، حيث لا يتوفر ، دليلاً على اتصالها بغيرها من الأقطار منذ ذلك الأمد البعيد ^(٢) .

J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago 1962), (١)
Vol. I, § 146.

H. Kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography (1961), (٢)
p. 126.

ولذلك فقد حرص المصريون على تأمين مصادر ما يطلبون من المواد والطرق إليها ، وسلكوا لذلك طريق الحرب وسبيل السلام على سواء .



(شكل ١)

وقد كان من وراء تخوم مصر مفاوز مرهقة وأقاليم مملكة قد علموا من أمر سكانها ما صوروه في آثارهم أحسن تصوير . فعلى الطريق الصاعد بين هرم ونيس عاehl الأسرة الخامسة وبين معبدته في سقارة ، صورة لطائفة من هؤلاء البدونزلت بهم مجاعة أذابت الشحم وأكلت اللحم ودقت العظم (شكل ١) وقد كانوا يحكم ما تنزل بهم من نوازل القحط ، يندفعون ما سنحت فرصة إلى الروابي الخضر فيما وراء الآفاق من بواديهم يتلمسون في مصر الرزق محاسنين أو مخاشنين ، فمنهم من كان يتسلل فيدخل في طاعة المصريين طاعماً في خدمتهم من عمل يده ، ومنهم من إذا اشتدت به الفاقة لم يبال إذا انقض في قومه على التخوم أن تأخذه نصال النابلة من حرس الحدود في صياصبيهم . وقد كان تجاور الأضداد على التخوم من الجفاف والري ومن الفقر المدقع واليسر الممتع خطراً مقبهاً على حدود مصر فرض على ملوكها التحفز الدائم لحمايتها من غارات المغيرين وعدوان المعتدين ، وكانت طوائف منهم تتعرض

لما ترسل مصر إلى طور سيناء من بعثات التعدين ، بل لقد أوشكت غارات البدو وحملات تأديبهم أن تكون من الأعمال الدورية على مر العصور منذ مطلع التاريخ المصري .

وقد تختلف الحملات من السرايا الصغيرة التي تخرج لإقارار الأمن والإرهاب إلى الكتائب الكبيرة التي تشتبك في المعارك وتقاتل في الحروب ، حيث توغل في تقدمها إلى ما يلي سيناء من غربي آسيا . ثم لم تلبث السياسة المصرية كما قدمنا أن حرصت على بسط نفوذها على تلك البقاع وضمها إلى مصر .

ومن أنباء تلك الحروب ما تواتر عن عاهل الأسرة السادسة پيى الأول من أنه أنفذ حملات خمساً بقيادة وزيره أونى لتأديب الآسيويين فتعقبهم حتى فلسطين ؛ فدمر حصونهم ، ودك قلاعهم وحرق دورهم واقتلع ما لهم من زروع وكروم ، ثم عاد بالآلاف منهم أسارى ، وكانت خامس هذه الحملات بحرية خرج فيها أونى بالأسطول المصرى فى البحر المتوسط فتزل بفلسطين حيث قضى على الخوارج فى موقعة سميت « شرت تب جحس » بمعنى أنف رأس الغزال . ومن أنباء الأسرة الثانية عشرة أن « سنوسرت » الثالث شخص إلى فلسطين فى جيشه فقاتل العصاة حيث أخضعهم فى منطقة ذكرتها المصادر باسم « سكيم » ورجحها المؤرخون بأنها شكيم الفلسطينية التى ذكرت فى التوراة ، ثم عاد إلى مصر بعد أن أعاد النفوذ المصرى إلى هناك .

على أن القبضة ما إن تراخى فى عصور التفرق والضعف السياسى حتى تنشط القبائل من حولهم إلى الضغط والغارة ، ثم إلى الزحف على الدلتا فى سبيل عيش لين ومقام كريم ، وذلك حين يستنيم ولى الأمر وتتحطم مواقع الحراسة وتنهار المقاومة . وقع ذلك على مدى عصور التاريخ مرات ومرات . فكان أواخر الأسرة السادسة حين طفقت عناصر من الآسيويين تتسرب إلى الدلتا حتى غمروها وتغلغلوا فيها ، ثم عاد فوقع فى أعقاب الدولة

الوسطى في صورة غارة هائلة حملت اسم « الهكسوس » الذين دخلوا مصر بالحرب والقتل والتدمير ، ثم شهدته مصر بعد ذلك من قبل الليبيين في الغرب والنوبيين في الجنوب وشعوب البحر المتوسط في الشمال . لذلك كله فقد حرص ملوك مصر على التدبير لأمن تخومها وسلامة حدودها .

وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة — التي عاصرها إبراهيم عليه السلام — من أحرص الفراعين وأنشطهم في حماية الحدود وحراسة التخوم ، فكان لهم في الجنوب ما بين سمّة عند الشلال الثاني وبين الفنتين عند أسوان ثلاث عشرة قلعة ، يبدو من أسمائها ما أريد لها من وظيفة الأمن والدفاع ، مثل « رادة القبائل » و « مخضعة الصحارى » . وكان « سنوسرت » الثالث من أنشط هؤلاء الفراعين فيما أرسى لتلك الحماية وبذل لها من جهود الحرب والإنشاء ؛ إذ ينطق عن سياسته في ذلك ما أقام عند سمّة من قلعة وشاهد يبين حدود مصر الجنوبية وما وصى به أخلافه من بنيه بالحفاظ عليها وحمايتها حيث يقول :

« أيما ولد لي يرعى تلك الحدود التي أقامها جلالتي فإنه (بحق) ولدى الذى ولد لجلالتي . . . أما من سوف يتخلى عنها ويتقاعس عن القتال في سبيلها فليس لي ولداً ولا هو وليد لي » (١) .

ومع ذلك فما كان لتلك الحدود أن تكون مانعاً ولا حائلاً في سبيل التجارة وسفارات السلام ، إذ كان الملك مع حرصه على تأكيد سيادة مصر على أراضيها وضمان سلامتها حريصاً على رفاهية شعبه وتنشيط تجارته وتوفير احتياجاته ، فأصدر مرسوماً أعلنه على بعض شواهد الحدود تلك يبين فيه مع الحدود نظام المرور ويعين أسواق التجارة جاء فيه :

« الحد الجنوبي الذى أقيم عام ثمانية في عهد جلالة ملك الجنوب والشمال خع بكاورع (سنوسرت الثالث) الموهوب الحياة أبداً وأزلاً لمنع أى زنجى أن يعبره بجرأاً أو برأاً بسفينة أو في جماعات من الزنوج ، وذلك

فما عدا زنجياً يأتي للتجارة في « يكن » أو سفارة ، فيؤدى له كل شيء طيب ، وذلك بدون السماح لسفينة للزنج بتجاوز « حح » هابطة التيار إلى الأبد^(١).

وكذلك حظيت مصر على جبهتها الشرقية بما عرف منذ الدولة الوسطى بحائط الأمير ، حيث قامت القلاع والحصون ومواقع الحراسة التي يقوم عليها الجنود المنوبون الذين لا يمكنون لدخيل من تجاوزها أو عبورها إلا أن يؤذن له ويمنح جوازاً بذلك ، وذلك في أقدم ما عرف من جوازات السفر في التاريخ . وفي قصة « سانوهي » التي انحدرت إلينا من ذلك العصر أنه خرج من مصر هارباً من فتنة ظن أنها واقعة بها لا محالة ، وأنه إن أقام غير ناج منها ، فولى وجهه — في طريقه إلى سوريا — شطر الشرق عند البحيرات المرة ، فلما انتهى عندها هناك إلى « حائط الأمير » الذي شيد لرد البدو ، كان عليه أن ينحني بين الشجيرات من حول القلاع أن تناله عيون الرقباء من صياصبيهم . كذلك روى أنه لما عفا الملك عنه وآن له أن يرجع إلى الوطن أقبل على مصر شيخاً طاعناً في السن ، حيث أقام عند تخومها الشرقية على طريق حور منتظراً — ولم يدخل — حتى أرسل قائد الحدود إلى الملك بمقدمه وعاد الرسول بالإذن للأمير العائد بالدخول .

ومهما يكن من شيء ، فلقد كشفت الأحافير على كل حال في مصر والشام وتحديث الأخبار يومئذ كذلك بما يشهد لمصر بما كان لها في تلك الربوع من النفوذ السياسي والمنزل التجاري جميعاً . فقد عثر من عهد الأسرة الثانية عشرة تحت معبد لها في الطود بصعيد مصر — فضلاً عن تماثم من لازورد . وأختام أسطوانية بابلية — على ودائع من حلى الذهب والفضة وسبائك منهما في أربعة من صناديق البرونز عليها اسم امنمحات الثاني ، وكلها بحكم طرزها الإيجية والبابلية إنما تنطق عما كان لمصر من علائق قد

تكون امتداداً لنفوذها على تلك البقاع^(١). كذلك عثر على طائفة من آثار تحمل أسماء ملوك هذه الدولة الوسطى وأفراد أسرهم في جبيل وبيروت وأوجاريت (رأس شمرا الآن) على الساحل الفينيقي، وفي قطنة شمالي سوريا. كما عثر في مجدو الفلسطينية على قاعدة لتمثال چحوثى حتب بن كاي وسات خبركا حاكم إقليم الأرنبة والكاهن الأكبر لمعبودها چحوثى في الأشمونين. ولا شك أن وجود تمثال لمثل ذلك الرجل في سوريا وفلسطين وهذه منزلته إنما يدل كما قدمنا على علائق متينة بين مصر وآسيا. وغير بعيد أن يكون وأقران له قاثمين بأعمال دبلوماسية هناك أو مندوبين في مواقع لمصر فيها مصالح تجارية كبرى^(٢)، ومع ذلك فلدينا من أخبار ذلك العصر - عصر الدولة الوسطى - شواهد تحدث عن موظف مصرى كان مقيماً في مجدو وكان يجلب العجول منها ويصدرها إلى مصر^(٣).

ولم تكن الوفود من مصر وإليها لتقطع عنها طوال تاريخها القديم، حتى عمت أخبارها وتفشت لغتها في أنحاء البلاد من غرب آسيا. وفي قصة ساتوهي وما كان من فراره من مصر أنه لجأ إلى بعض مدائن سوريا حيث كتب إليه أميرها يدعوها إلى الإقامة عنده حيث الأمن والدعة وحيث يسمع لسان مصر.

وكان صوت مصر وصيتها يومئذ - بحكم ما قدمنا - قوياً في الأسماع مهيباً في النفوس، حيث تولى الحكم فيها ملوك حرصوا على توفير الكفاية والعدل في البلاد، وقد سبق عصر هؤلاء الملوك عصر نادى الناس فيه بالعدل والحق والمساواة، وعبروا عما في أعماقهم من مشاعر الشوق إلى العدل، فلما

(١) مصر ص ٢٨٤ - ٢٨٥ تأليف اتين دريوتون وجاك فاندييه

وتعريب عباس بيوى

(٢) Pritchard, Ancient Near Eastern Texts Relating to the

Old Testament (3rd edition, Princeton 1969), p. 228.

Montet, L'Egypte et la Bible, (Neuchatel 1959), p. 19. (٣)

جاءوا إلى العرش أخذوا أنفسهم بتحقيق الرفاهية وإرساء العدل للأرباب والناس .

ومن المحقق أن مصر كانت تصدر مع ما كانت تصدر من عروض التجارة إلى تلك الربوع ما اهتدت إليه من العلم والفكر والأخلاق ، وأنها مهدت هناك بتعاليمها لتعاليم من ظهر من الأنبياء والمرسلين وأقامت أساساً من الفكر والضمير الحى الذى أرهص لما بشروا به وهياً لاستقبال ما نزل عليهم من العقائد والرسالات .

وكانت الأسرة الثانية عشرة يومئذ قد بلغت من القوة واليقظة ومن الثقة والنظام أن سمحت لمن شاء ممن جاورها من الشعوب أن يقبل عليها موغلاً إلى حيث يستطيع من أقاليم الصعيد ، وكان منظر القوافل من البدو مما راق لشريف من بنى حسن وراق لفنانه الذى أعد له قبره فصور قافلة منها فيه . إذ نشهد فى قبر جنوم حتب منظرأ (فى شكل ٢) لقافلة أو قبيلة من سبعة وثلاثين نفساً من رجل وامرأة و غلام ، أقبلوا بقيادة زعيمهم أو شيخهم إيشا (أو إيشاى كذكره فى التوراة) يبيعون الكحل ويحملون القسي والسهام ويروجون لذلك بما يعزفون من نغم على الطنبور ؛ وذلك بما عليهم من مآزر مبرقشة ولحى كثيفة تملأ العوارض وشعر على الرؤوس طويل .

ولم يكن أبيشاى رأس تلك القبيلة السامية أو حاكم البلد الأجنبى كما وصفته النصوص المصرية ليدخل مصر فيجوس خلال الديار بغير إذن الملك ولا إذن السلطات المصرية كما يقال ، فلقد رصد الفراعنة على التخوم من شرق مصر — كما قدمنا — قلاعاً عليها الرماة من العسكر يرقبون السفر داخلين خارجين ، ولم يكن لغريب أن يدخل إلا أن يقف عند ثارو حيث المقنطرة الآن فلا يواصل المسير حتى تعرف هويته وتتكشف نيته ويتضح مبتغاه . وقد روينا عن سانوهى أنه فى فراره من مصر قد حرص على التخفى بين الشجيرات حتى لا يراه الرقباء من فوق القلاع ، وأنه فى أوبته إلى الوطن شيخاً طاعناً فى السن قد توقف عند ثارو وهو الأمير المصرى المعروف حتى جاءه إذن الملك بالدخول .

وفي هذه الفترة من حول القرن العشرين من قبل مولد المسيح على عهد هذه الأميرة المالكة المصرية - على المشهور - أقبل إبراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام . وأكبر الطن أن إبراهيم قد هبط مصر مع إحدى قوافل البدو تلك



(شكل ٢)

التي كانت تقبل بائعة لها وبائعة منها كما رأينا في قافلة أبيشاي . ولقد كان حلول إبراهيم بمصر كما روى الأصمحاح الثاني عشر من سفر التكوين فراراً من قحط وجوع لم يكن إلى احتماله بفلسطين من سبيل : « وحدث جوع

في الأرض فأنحدر إبراهيم إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً ، ومن المحقق أنه إنما أقبل على مصر وقد تسامع الناس في بلاده بما كان في مصر يومئذ من الرخاء ورغد العيش وابن المقام ، وما كان يسودها من الأمن والدعة والسلام . ومهما يكن من تقدير المؤرخين والكتاب في تاريخ هبوطه مصر واختلافهم فيه ، فإن الأحوال المواتية التي كانت خليقة أن تجذبه إليها وتغريه بالإقبال عليها والإقامة فيها إنما تهيأت واستقرت على عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة ولم تنهياً قبلها ولا استمرت طويلاً بعدها كما نوثك أن نفصل بعد قليل ، وظاهر من رواية التوراة والمشنا^(١) وما أيدهما من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة أن إبراهيم إنما دخل مصر جهرة ولم يدخلها تسلاً ، وأنه لم يدخل في عهد من عهود الفوضى والاضطراب التي سبقت الأسرة الثانية عشرة أو لحقت بها أيام الهكسوس . بل أقبل — وهو يعلم — على دولة مستقرة منظمة سوف يسأل عند الحدود فيها عن هويته وهوية من معه من رجال ونساء ، فكان منه ما كان من حديثه إلى امرأته سارة فيما اتصلت روايته في الأصحاح الثاني عشر من سفر التكوين :

« وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك . قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك » (١٠ - ١٣) .

ويستخلص كذلك من أحاديث المشنا فيما كان من دخول إبراهيم مصر مع سارة أن التخوم المصرية قد كان عليها من عمال المكوس من يسأل ويستقصي السفّر فيما يحملون في أمتعتهم من عروض . إذ روت أن إبراهيم

(١) المشنا القديمة أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة ، فالمقرا هو ما يحفظ بالقراءة في الكتب ، وهو نصوص التوراة المعتمدة والمشنا هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ومنه التلمود على نشأته الأولى .

خاف على فرعون وقومه الفتنة من جمال سارة فحملها في تابوت وهم يعبرون تخوم الديار ، وسأله عمال المكوس عما في التابوت فأنبأهم أنه شعير ، قالوا بل نأخذ المكوس على قمح قال خذوا ماتشاءون فعادوا يطلبون الضريبة على بهار فأجابهم إلى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمره أن يؤدي الضريبة على وسق التابوت ذهباً فقبل فأعطاهم سوطهم ، فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم ففتحوا التابوت عنوة فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون .

على أن إبراهيم لم تكن به من حاجة إلى الخوف على حياته من أهل مصر ولا من ملكها على امرأته أن تغصب منه ويقتل من أجلها . ولعل الذي راود صدره من خوف لم يجاوز الوهم كما ساور يعقوب الوهم من حسد بنيه الاثنى عشر إن دخلوا من باب واحد ولم يدخلوا من أبواب متفرقة (١) ، ولعل إبراهيم عليه السلام إنما صدر فيما صدر عن استشعار مما عهد من غصب النساء والاحتياال على اقتناصهن من أزواجهن في بلاده التي أقبل منها ، بل ومن بوائق أسوأ سوءاً وأعظم نكراً بلا بعضها في سدوم ابن أخيه لوط من قومه ، فحقت عليهم كلمة العذاب ، وأخبر الله بها إبراهيم .

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . . »

الآية (هود ٦٩ - ٧٠ ، ٧٧ - ٨٢)

(١) « وقال يابني لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكفل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (يوسف ٦٧ - ٦٨)

بواثق بلغ من شيوعها أن تواترت إلى كاتب التوراة لاحقة بالأنبياء والمرسلين وهونت عليه نسبة الزنا والغصب إليهم . فذكر أن لوطاً سكر وزنى بابنتيه فحملتا منه (تكوين ١٩ : ٣٠ - ٣٨) وأن داود رأى من سطح بيته امرأة أوريا تستحم « فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه واضطجع معها » ثم كتب داود مكتوباً إلى يואب وأرسله بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت .

(صموئيل الثاني ١١ : ٢ - ١٦)

على أن ملك مصر - على كل حال - ما إن عرف مكان سارة من إبراهيم حتى تدمم - بحكم ما كان يسود مجتمعه من مكارم الأخلاق - مما أوشك أن يقع فيه من اتخاذ زوجة غيره زوجة له ، واستنكر ما ألقى إليه إبراهيم أو نقل عنه من خبر مكذوب وما كان من زعمه أنها أخته ، فتقول التوراة .

« فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال . »

(تكوين ١٢ : ١٤ - ١٧)

ونريد قبل المضي في هذا الحديث أن نستطرد قليلاً فيما ذكرت التوراة من جمال نالها إبراهيم في مصر مصححين . ذلك أن كاتب التوراة - في معرض التعبير عما لقي إبراهيم من كرم فرعون إنما كان يعدد على أسلوبه وبيئته ما عسى أن يتلقى - في مفهومه - من ملك مصر ، فذكر الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والأتن ، ثم أضاف إليها الجمال ، وإن ظلت الإبل غريبة لا يعرفها المصريون يومئذ على التحقيق ، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر يومئذ من قبائل البدو الساميين ، فلقد أقبلت قبيلة

إيشاي أو قافلته تسوق الحمر لا الجمال كما لم ترد فيها نقش على صخور سيناء من ذلك العهد صور للجمال .

ونعود إلى رواية التوراة التي تتصل فتقول :

« فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة إبراهيم ، فدعا فرعون إبراهيم وقال ما هذا الذي صنعت بي ، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ، لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي ، والآن هو ذا امرأتك . نخذها واذهب فوصي عليه فرعون رجالا فشيعوه وامراته وكل ما كان له . »
(تكوين ١٢ : ١٢ - ٢٠)

وقد وافق حديث الرسول عن أبي هريرة رضى الله عنه خبر الحليل في التوراة قال عليه الصلاة والسلام :

« لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله في قوله إني سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة في شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأجيبه إنك أختي ، فإنك أختي في الإسلام ، فإنى لا أعلم في الأرض مسلماً غيرى وغيرك . فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأثاه ، فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة . فلما دخلت عليه لم يتألك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها ادعى الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدي فلك عهد الله ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضى وأعطها هاجر . . . فأقبلت تمشى فلما رآها إبراهيم عليه السلام . . قال مهيم قالت خيراً كفى الله يد الفاجر وأخدم خادماً . قال أبو هريرة فذلك أمكم يا بنى ماء السماء . »

« لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات » ، ومع ذلك فقد حرص مفسرو الإسلام على نفي الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه . وقالوا إن الكذب حرام إلا إذا عرض . ومن أمثلة العرب قولهم إن في المعارض لندوحة عن الكذب ، ولذلك فقد ذكر المفسرون أن الذي قاله إبراهيم فيما ورد بسورة الصافات « إني سقيم » إنما هو معراض من الكلام أى سأسقم ، أو أنه من الموت في عنقه سقيم ، أو أراد إني سقيم النفس لكفركم ^(١) ، وأما الثانية فقد وقعت فيما كان منه بأصنامهم « وتالله لا أكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون .

« قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » ، قالوا سمعنا فتي يذكركم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » ^(٢) .

وقد ذكر النسفي في تفسيره أن إبراهيم إنما نسب الفعل إلى كبيرهم وقصد تقريره لنفسه وإثباته طاعلي أسلوب تعريضى تبكيتاً لهم وإلزاماً للحجة عليهم . وقال أبو السعود مشيراً إلى الذي لم يكسره : « سلك عليه السلام مسلكاً تعريضياً يؤديه إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على أطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب ، حيث أبرزه في ذلك المعرض فعلا يجعل الفأس في عنقه . وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه ، وكأن غيظ

(١) تفسير النسفي لآية ٧٩ .

(٢) الأنبياء ٥٧ - ٦٣ .

كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه باعتبار أنه الحاصل عليه ، وهو على كل حال إنما قصد بمقالته تلك إلى تبكيتهم بما يعبدون من صنم لا يسمع ولا يقول » ، وأما البيضاوى فقد ذكر أنه إنما « أسند الفعل إليه تجوزاً لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبب لمباشرته إياه وتقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضى كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبه بخط رشيق أنت كتبت هذا فقلت بل كتبه أنت » .

وبعد ، فما بال إبراهيم في الثالثة يزعم للمصريين أن سارة أخته؟! أتراه اضطر هذه المرة إلى الكذب والمين فلا منتدح ولا محيص إلى التعريض ؟ !
لعل دراسة الحضارة المصرية ولغتها أن تقدم إلينا في قصة إبراهيم سبيلاً إلى إعفائه مما قيل إنه وقع فيه ، وأن تسهم مع المفسرين فيما أرادوا لإبراهيم من تنزيه عن الكذب الذى قيل إنه اضطر إليه فمال عنه إلى التعريض .

فغير بعيد أن كان إبراهيم عليه السلام يعرف اللغة المصرية القديمة ويعبر بلسانها ، أو أنه على الأقل ، بل لا أكاد أشك ، أنه قد كان يعرف منها بحكم انتشارها في بلاده كما قدمنا طائفة من عبارات وألفاظ تعينه على شئونه في مصر حين أقبل عليها . لذلك فلم يكذب إبراهيم ولم يخرج على مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون . فلقد كانوا يطلقون على الزوجة في لغتهم — فضلاً عن لفظ المرأة حمة و « سة حمة » (أو هيمه وسهيمه) — لفظ الأخت « سونة » (١) ، وكان ذلك نوعاً من التعبير عن المحبة والإعزاز . وما ندرى لعل إبراهيم حين أقبل على مصر فلقى الناس من آل فرعون وملئه قد أثر التورية والتعريض فوصف زوجته سارة على مألوفهم بأنها « سونة » بمعنى الزوجة أو الأخت ، حيث وقع أو أوقع في روع المصريين بلكنته

(١) تشبه اللفظ العربى « صنو » .

الأجنبية ، وما عسى أن رأوا من معاملته لسارة أنه إنما قصد إلى المعنى الأصيل
 للفظ الأخت لا إلى المعنى المجازي له ، ولعله قال لسارة فيما روى عن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم :
 « إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك فإن سألك فأجيبه
 أنك لى "سونة" أو "سونى" » .

عدل المصريين وتقديس الحرمات

وظاهر من سياق الرواية أن إبراهيم لم يكن مضطراً — لو عرف المصريين
 بحق — إلى الخوف على امرأته ونفسه من بطش الملك . فلقد كان الملك ،
 كما فعل من بعد ، خليقاً أن يحترم حرمة الزوجة لو كان أخبر بذلك من
 قبل ، فلقد كان المصريون يقدرون الحرمات ويقدسونها ويرعونها أشد
 الرعاية ويبجلونها أعظم تبجيل .

فلم يكد فرعون يتبين مكان سارة من إبراهيم حتى ردها إليه معتذراً
 عما أوشك أن يفرط عن غير علم منه محتجاً على ما أبلغ إليه من خبر مكذوب
 أو مدخول ، متفضلاً بما أهدى إليها من جارية هى هاجر أو هافر إن شئنا
 أن ننتق باسمها المصرى بغير تصحيف ولا تحريف . وقد كان فراعين منصر
 من ذلك العصر يحبون فى ظل مبادئ من الحق والعدل فرضها المجتمع المصرى
 يومئذ للناس أجمعين ، وحرصوا هم على أن يتمتع بها الصغير مقاماً والكبير
 منصباً ، فلا فضل لشريف على غيره لشرفه ولا لغنى على فقير لغناه ، بل لافضل
 لحاكم على محكوم بحق ادعاه ، ولعلمهم بما اتخذوا لأنفسهم من الأسماء
 والألقاب إنما كانوا يعلنون للناس ويلزمون أنفسهم بما دلت عليه ألقابهم
 تلك من المعانى والمثل العليا ، فقد اتخذ أمنمحات الأول رأس الأسرة لقب
 « المولد المتكرر » أو النهضة كأنه كان يدل على ما فى ضميره من حرص
 على أنه بعهدده إنما يبدأ عهداً جديداً يعيد به إلى مصر مجدها القديم .
 وحرص أخلافه على أن تشمل ألقابهم التى يتخذون معنى العدل والحق

والمساواة والقانون وهي المعاني التي يشتمل عليها كلها لفظ « ماعت » المصري فاتخذ أمنمحات الثاني لقباً يعنى السعيد بالعدل وعادل الصوت، وتسمى سنوسرت الثاني «مظهر العدل» وأمنمحات الثالث «العدل لرع» ، وأمنمحات الرابع « عادل الصوت رع » . وفيما بلغنا من آثارهم الأدبية شواهد ممتعة ومثل رائعة بما استطاع هؤلاء القوم إرساءه من قواعد الحق والعدل والمساواة ؛ وما أقاموا من معاني الخير والبر والإحسان . فقد ذاعت أيام تلك الدولة قصة نعرفها اليوم بعنوان : « قصة القروى الفصيح » وهو الذى تعرض لظلم حاكم الإقليم بغضبه حميراً له . ولكن بطل القصة أبى ورفض الاستسلام فطفق يشكو ويجأ بالدعاء حتى بلغت شكواه مسامع الملك أمنمحات الثانى فأنصفه وأكرمه . وقد استهدفت القصة فيما استهدفت الإعلاء من كلمة الحق والعدل ، وما ينبغى أن يكون عليه من السيادة والقوة التى تشمل صاحب السلطان الذى يتسلط على الناس ، كما تشمل العاقل من السلطان الذى لا يتسلط على أحد من الناس ، بحيث يكون الناس جميعاً سواسية أمام القانون . وقد قدمت هذه القصة فى ختامها دليلاً على رعاية العدل والانتصاف من الظالم للمظلوم ، ودلت على مجتمع يستطيع فيه القروى المسكين الدفاع عن حقه والمثابرة عليه والإلحاح فى طلب الإنصاف من ظالمه ، مبينة عن شجاعة فى الطلب وجراءة فى مخاطبة الحاكم بل تعنيفه بدون خوف أو وجل من أذاه ، وذلك فضلاً عما اشتملت عليه من نقد لاذع ونبش لمس فى المجتمع من العلل والعيوب ، فلقد خرج القروى عن أمر المطالبة بحميره إلى الحديث عن جشع كبار الموظفين وانحراف القضاة وفساد الذمم ، وتستر الحاكم عليهم واشتراكه معهم فيما ينهبون ، فكان القصة تعلم للناس حقوقهم فى العدل والمساواة وفى حرية الكلمة والتعبير، وواجب الشجاعة فى إبلاغها . فضلاً عن ذلك فقد شاء الكاتب على لسان القروى أن يسط للناس مكارم الأخلاق وفضل الحياة الصالحة النقية وما شاع فى عصره من زهد فى الدنيا وزخرفها فإن

الآخرة خير وأبقى ، وماذا عسى أن يجنى الحاكم أو غيره من المال على سوء الخلق وفساد الضمير وأكل السحت وقول الزور ، ومن ورائه حساب ينتظره يوم تجزى كل نفس ما عملت ، وحسبه إبريق من جعة ورغفان ثلاثة ، وذلك لأن العدل باق خالد وهو يتزل مع من يقيمه كما قال ، وكما قيل من قبل للملك مريكارع. « بأن فضيلة من يؤثر العدل والحق أحب (عند الرب) من الثور الذي يقدم قرباناً ، وهو المثل الذي انتقل إلى التوراة في أمثال سليمان (٢١ : ٣) في قوله : « فعل العدل والحق أفضل عند الرب من الذبيحة » ، كذلك فلم يعتمد ملوك هذه الأسرة إلى إثارة أنفسهم بالأضحية الفخمة والأهرام الضخمة ، بل آثروا إنشاءها من اللبن وتوجيه جهودهم إلى رفاهية الشعب وسعادة الرعية ، ولئن كانوا قد نشأوا من طيبة ووجهوا بحكم تلك النشأة بعض عنايتهم إليها ، فلقد نقلوا عاصمة ملكهم إلى مدخل الفيوم في مكان يقال اليوم اللشت غير بعيد من واسط الأرض منف . هناك أقاموا في تلك البقعة الشاسعة الحصينة من أرض مصر من مشروعات الري الهائلة ما غمر خيره البلاد والعباد ، حيث أنشأوا عند مدخل ذلك المنخفض سدًا هائلًا خلقوا به خزانًا ضخماً يدخرون فيه مياه الفيض التي تتحدر على مصر أمواهاها ، فمالتبث أن تنصب وتزول في البحر هباء ، فكانوا أن أضافوا إلى حقول مصر زهاء سبعة وعشرين ألف فدان من أرض تزرع عند الفيوم ، كانت من غير شك مصدراً من مصادر الرفاهية في بلد تعتمد رفاهيته على الزراعة والري . ولقد كان ادخار ماء النيل والحكمة في الإفادة منه إنما يقتضى علماً واعياً بمواقيت فيضيه ومناسيب دفعه ، وكان فراعين هذه الأسرة حكماء ، اتبعوا في ذلك سبيل الحكمة والتدبير ، فكان لهم في أقصى الجنوب عند الشلال الثاني رجال يرقبون المناسيب على الصبحور ، فإذا ما أبلغ ولي الأمر بما يرون من « نيل منخفض » أو « مبكر أو مستأخر » اتخذ ما يضمن الإنتاج الأكبر وتجنّب البلاد ما عسى أن تتعرض له من أخطار . وكذلك فقد استغل ملوك هذه الأسرة مناجم سيناء

استغلالاً طيباً ، ثم أولوا بعد ذلك التجارة الخارجية جهد استطاعتهم من
الوشائج المتينة والأمن والسلام ، حيث تمتعت مصر — كما قدمنا — بنفوذ
سياسى ومركز تجارى وسلطان ثقافى متين فى غرب آسيا بنوع خاص ،
فلا جرم يفخر أمنمحات الأول بالأجائع فى عهده ، ولا جرم تكون مصر
قبلة لطلاب الرزق والعلم حيث تقدم لهم ما يشاءون من غذاء البدن والروح
جميعاً .

ولم يصل هذا الشعب إلى ما وصل إليه من ذلك ، إلا بعد كفاح اجتماعى
وفصاع طويل امتد من تاريخ مصر أجيالاً منذ الدولة القديمة أواخر الأسرة
الرابعة فى القرن السابع والعشرين من قبل مولد المسيح ، حتى مطلع الدولة
الوسطى فى القرن العشرين . صراع ركب السياسة وركبته السياسة فأدب
فيه من حكومة إلى حكومة ومن دين إلى دين ، ثم عجز عجاجه واصلخهم
عبابه بسقوط الدولة القديمة فى أعقاب الأسرة السادسة بالعنف والهدم وسفك
الدماء ، وذلك فى أول ثورة اجتماعية عرفها التاريخ .

كان الملك فى عيون المصريين الأقدمين منذ مطلع الصبح من تاريخهم
إنما يحكم البلاد باسم إلههم حور ، ولقد بدا سلطان الملكية وسطوتها
منذ مشرق الدولة القديمة فيما أنشأ الملوك لأنفسهم من أبنية كالجبال اتخذوها
قبوراً وأضرحة تستقر فيها جسامهم بعد الموت ، وفيما جندوا وحبسوا لتلك
المنشآت الباذخة من الأموال والعمال والكهان ، ولنا فيما نشهد من أهرام
زوسر وستفرو ونخوفو وخفرع دليل ناطق وبرهان مبين . ثم كان أن طفق
سلطان الملوك العارم ينحسر عن النفوس وبأسهم يتقلص فى العيون ، واهترت
هيبة الملكية أواخر الأسرة الرابعة منذ طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم
ويدعون لدولتهم التى يقبض زمامها — فيما رويوا — ملوك زعموا أنهم يولدون
لإله الشمس من امرأة من الشعب يقال لها رد جدت .

ثم كان خليقاً بملوك الأسرة الخامسة أن يسيروا فى الناس سيرة تتفق
وما كسبوا من تأييدهم فى الوصول إلى الملك ، فبدلوا الأموال والمناصب عن
(٢)

سخاء لأهل الطبقة العليا — فضلاً عن كهان الشمس — حرصاً على استبقاء ولائهم وتأيدهم ، بل زادوا ففتحوا لهم سبيل المصاهرة يزوجونهم ويتزوجون منهم ، ففتحوا للناس بذلك سبيل الإحساس بكيانهم وسبيل الإيمان بالمساواة ، ولم يكن قليلاً ولا هيناً يومئذ أن يعتذر ملك لرجل من رجاله ، فلا يتخرج نفراً يركارع ، وقد أصابت عصاه ساق « رع ور » ، من أن يعتذر له ويعلن أن « رع ور » أحب الناس إليه وآثرهم عنده ، بل لم يكنف بذلك فأذن للرجل بتسجيل تلك الواقعة وذلك الاعتذار في قبره لتقرأها الأجيال من بعدهما ، ولنقرأها ثم نردها في هذا الكتاب ، كما ترد في كتب أخرى بعد نيف وأربعين قرناً من الزمان .

ولئن ظل الملوك من أخلاف الأسرة الرابعة ينشئون الأهرام أضرحه لهم ، فلقد بدا واضحاً صغر حجمها وضعف بنائها وتواضع مظهرها بالنسبة إلى أهرام أسلافهم ، ولا شك أن ذلك إنما يترجم عن قلة في الموارد وانحسار في النفوذ وانصراف الناس إن لم يكن كفرهم بحق الملك في استنزاف أموال البلاد من أجل ضريح له وحده دون سواه ، حيث طفقت أفكار الناس تتحول عن المادية وسيلة إلى السعادة في الدار الآخرة وزاداً لها ، إلى أفكار أخرى تؤمن بالتقوى وصالح الأعمال . ولم يعد مصير الإله أوزيريس — رب الموتى — حقاً للملك وحده ، بل شاركه في ذلك الأشراف أولاً ، ثم لم يلبث العامة أن دخلوا معهم وشاركوهم في ذلك المصير .

ولم يكن « پي » الثاني آخر ملوك الأسرة السادسة بالرجل القوى الحازم الذي « يقبض » زمام الأمور ، ولا كان بالملك الذي يحفظ بسلوكه للعرش هيئته ، ثم كان لشيخوخته الطويلة — إذ بلغ المائة — الأثر الحاسم في انقضا صرح الدولة وانحسار نفوذها ، حيث اضطرب الأمن واضطربت في البلاد ثورة فكرية اجتماعية لم تعرفها منذ اتحادها على يد نعمر ، فترعرعت عقائد واهتزت مثل وقيم قدسها المصريون من قبل ، فانهارت في عيونهم قيمة القصور المنيفة والمقابر الضخام ، فكان أن انطلقت الألسنة المعقولة ونطقت

الأفواه المكشوفة ، وذلك فيما صور لنا حكيم ذلك الزمان ابيوور ، الذى اقتحم على الملك سكينته التى أخلد إليها وأستنام لها ، فطفق يصف فى أسلوب رائع حزين حال البلاد وما تردت فيه من اضطراب وإفلاس ، وما حل بالناس من محن وخطوب ، فذل العزيز وعز الدليل . ولقد تمثلت الثورة فيما وصف ابيوور بعدوان الناس على الناس وأملاك الناس ، بل بعدوان من يفترض فيهم صون الأمن على الأمن ، وبسوء استخدام المسلحين لأسلحتهم وإضراب العاملين عن العمل ، وبالعداء للأغنياء والشهاتة فيهم بما أصابهم من إدبار الزمان واختلال موازين الثراء ، حيث أثرى الفقير وأملق الغنى ، وبتدمير المنشآت وتدهور الاقتصاد والصحة العامة ، وعجز الناس عن دفن موتاهم فإذا بهم يلقون بهم فى النيل حتى صار مدفناً كما قال . بل لقد بلغ البؤس والشقاء بهم مبلغاً حملهم على التخلص من الحياة بالانتحار ، فإذا البلاد من ذلك كله فى حالة من الركود والانحلال أطمعت فيها البدو فترحوا إليها لا يجدون من يردهم ويدافع عن مصر ، فانتشروا فى الدلتا زرافات وأفواجاً .

ولذلك فلم يكن إبراهيم عليه السلام ليأتى إلى مصر فى ذلك الزمان ، فإن هذه الأحوال التى نستطيع اتخاذها - فضلاً عن حساب السنين من قرائن التحديد لعصره - لماعة رجلا مثله أن يهجر جوعاً إلى جوع وإملاقاً إلى إملاق ، بل يهجر آمناً وإملاقاً إلى اضطراب وإملاق .

تطور الفكر المصرى الذى شهده إبراهيم

ومهما يكن من شىء ، فلقد نتج عن تلك المحن التى نزلت بالبلاد كثير من التأملات والأفكار ، فمن الناس من اهتر يقينه بالدين على عمق يقين الناس بالدين ، فأنكر الإله واستخف بالآخرة والحساب ، فمنهم من قال فيما روى ابيوور : « لو أنى عرفت أين الإله لقدمت إليه القربان » ، أو كعازف الجونك الذى حضض الناس على الملذات واقتناص المسرات ، « فإن

أحد آمن قضى نحيبه لم يعد ليحدثنا بما وقع له .
 على أن منهم من لم يرض عما آل إليه حال البلاد ولا هو سكت عما
 نزل بها من الكوارث والمحن ، فانطلقت الأفواه والأقلام بما أتيح لها من التعبير
 عن الشوق إلى العدل وعودة البلاد إلى النظام والأمن ، وذاعت في الناس
 فضلاً عن ذلك الكهانات التي تبشر بالمخلص المنتظر الذي يملأ الدنيا
 عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وتسامع الناس بظهور « ابن الإنسان » الذي
 يقيل البلاد من عثرتها وينقذها من محتتها ، فكأن الناس ، بما أشاعوا من
 ذلك قد وضعوا أسس الحكم وقرروا الشرائط التي تسوغ للحاكم حكمه
 والدستور الذي يقيم عليه الملك ملكه ؛ ثم ما لبثت تلك الأفكار أن تبلورت
 نصوباً مكتوبة فيما صدر من نصائح جرت على لسان « خيتي » أحد ملوك
 أهناسيا من ذلك العصر إلى ابنه « مريكارع » ، حيث بسط أصول الحكم
 الصالح وأعباء الحاكم الرشيد ، وشرح حق الرعية عليه وواجبه نحوها .

وقد كانت الأفتدة يومئذ قد تحولت إلى معان جديدة ومبادئ جلييلة
 فغلبت فيها على المادة الروح ، إذ رأت السعادة في صالح الأعمال وفيما
 يكتسب المرء من الفضائل ، فأشادت الأقلام بالنظام والعدالة وبشرت بأن
 الخلود لا تسوغه وجاهة أو ثراء وإنما سبيله اجتناب الآثام وفعل الخيرات ،
 وهي بهذا قد أرهصت بما علم الأنبياء ، وأعدت الناس لما يبعثون به كافة
 للناس من رسالة ودين ، بل نطقت بما ثبته الأنبياء بعد عصرها بلفظه
 ومعناه .

ولا شك أن إبراهيم قد أفاد مما رأى وسمع ، حيث طفق يتأمل ويسائل
 نفسه فيما شهد من سيرة الناس ولتبيين الهدى فيما يعبدون من نجم وقمر
 وشمس .

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من
 الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال
 لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن

لم يهْدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال
هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني
وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين «
(الأنعام ٧٥-٧٩)

۳

یوسف

« لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » .

كان دخول يوسف مصر على المشهور أيام احتلال الهكسوس مصر . وقد كانوا قومًا آسيويين ساميين أو تغلب فيهم العناصر السامية من سوريا وفلسطين . دخلوا مصر أواخر الأسرة الرابعة عشرة غزاة فاتحين يغريهم ضعف البلاد السياسي وتغريهم ثروتها وخصب أرضها ، وتدفعهم من مواطنهم في ذلك العصر ظروف طبيعية صعبة ساد فيها الجفاف وصوح الزرع وقلت الموارد ، وحل القحط الذي يبلغ ذروته ثم امتد حتى شمل مصر في أعقاب مجيء يوسف بسنين .

ولقد ترك فتح الهكسوس مصر أثرًا لا يمحى في نفوس المصريين . تحدث عنه المؤرخ المصري « مانيتون » فيما روى عنه مؤرخ اليهود يوسف ، فيقول : « وكان هناك ملك لنا يدعى « تباؤس » وقع في عهده — لا أدرى كيف — أن غضب الله علينا فجاء على حين غفلة قوم من أصل وضيع من ربوع الشرق ، كان فيهم من الجرأة أن حملوا على بلادنا وبسهولة أخضعوها بالقوة ، وإن كان ذلك بغير الالتحام في معركة معهم ، فلما أخذوا حكامنا تحت سلطانهم عمدوا بعد ذلك فأحرقوا مدننا ونقضوا معابد الآلهة واستغلوا الناس استغلالًا وحشيًا ، إذ قتلوا بعضهم وساقوا أبناءهم وأزواجهم أسرى » .

وتحدثت « حاتشبسوت » من بعد انحسار دولتهم وانقضاء زمانهم بنيف وسبعين عامًا تشير إلى ما أوقعوا بمصر بقولها :

« لقد أصلحت الخراب وأتممت ما كان ناقصًا قبل مجيء الآسيويين إلى هواره في الأرض الشمالية ، وكان بينهم يومئذ من البرابرة من وجهوا

جهدهم إلى تخريب العمائر جهلاً منهم بوجود راع .

ثم لم تلبث حياة الاستقرار أن هذبت الهكسوس فأخلدوا إلى ما وجدوا من المدنية والحضارة المترفة التي أتاحتها الحياة المصرية إذ ذاك . فأتخذ ملوكهم ألقاب الملوك المصريين وآلهتهم وأطرافاً من حضارتهم ؛ وتسموا ببعض أسمائهم ، واتبعوا فيما بعد نوعاً من التعايش السلمى مع عواهل مصر وأقيالها الوطنيين فى أقصى الصعيد ، ولقد صورت لنا ذلك وثيقة بردية تحدثت يومئذ عن ملك طيبة « كاموسى » أنه لما عزم على إجلاء الهكسوس واستئناف القتال معهم قال : « وددت لو أعلم فائدة قوتى ، وفى هواره أمير وفى النوبة آخر . إننى لأجلس هنا بين آسيوى ونوبى ، حيث يقبض كل منهما جزءاً من مصر ويشركنى الأرض ، إننى لن أتركه . . . انظروا إنه يحتل خيمونو (الأشمونين) » ، فقال بعض جلسائه من الأشراف : « أجل ، لأن كان الهكسوس قد أدركوا القوصية وأخرجوا لنا جميعاً ألسنتهم فما زلنا نملك نصيبنا من مصر هانئين ، فالفانتين قوية والأرض الوسطى معنا حتى القوصية ، وأحسن حقولها تحرث من أجلنا وثيراننا ترعى فى الشمال والحبوب ترسل إلى خنازيرنا ولن تؤخذ منا ثيراننا » .

ومهما يكن من شىء ، فقد اتخذ الهكسوس عاصمة ملكهم فى شرق الدلتا فى مدينة حوت وعرت (هواره) حيث فتحو أبواب مصر الشرقية لهجرة العناصر السامية والكنعانية من بنى جلدتهم فدخلوها أفواجاً لا يصدون عنها ، وكان منهم من غير شك الرعاة الذين أقبلوا على مصر يطلبون الحياة السهلة والإقامة الناعمة والمرعى الغزير ، ولعل ذلك ما حدا بالمؤرخ المصرى « مانيتون » إلى تفسير اسم الهكسوس بملوك الرعاة .

وفى هذا الزمان الذى أظل مصر ، أقبل يوسف عليها . وكان ملوك الهكسوس من غير شك قد أدخلوا بعض المصريين من أهل الدلتا المحتلة فى خدمتهم وانتحلوا بعض عادات المصريين وبعض أسمائهم ، وربما دل على ذلك اسم العزيز الذى اشترى يوسف وأدخله فى خدمته « فوطيفار » .

وهو اسم مصرى مصحوف عن « پادى پارع » بمعنى عطية رع .

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكل وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .
(يوسف ٧ - ٩)

بدأت قصة يوسف بالحقد الذى ثار فى نفوس إخوته لما رأوا من حب أبيه إياه وإيثاره عليهم ، فاجتمعوا على النيل منه وتآمروا على المبادعة بينه وبين أبيه ، أو فليكن قتله حلاً لحب يفتقدونه فى أبيهم وضغن استقر فى نفوسهم لا يكاد يريم . ومع ذلك فقد كانت للقتل بشاعة ترهق نفوس الإخوة وتردها عن اقترافه والتورط فيه وإحتماله ، فليئسوا عن قتل أخيهم وليؤثروا المبادعة بينه وبين أبيه بإلقائه فى البئر حيث يلتقى ما قدر عليه من مصير لا يستثنى منه الموت .

« قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الحب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين »

(يوسف ١٠)

وقد قدر ليوسف أن يدخل مصر عن هذا الطريق . إذ استأذن إخوته أباهم يعقوب فى اصطحابه إلى حيث يرتعون ويلعبون زاعمين .
« قالوا يا أبانا مالك لا تأمناً على يوسف وإنا له لناصبون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » (١٢) .

وظاهر أنهم كانوا تقدموا إلى أبيهم من قبل فى اصطحابه والخروج به فأظهر الخوف عليه والشك فيهم ، وقد كان يعلم أن فى نفوسهم وقلوبهم ذنباً ضارياً يربص به ريب المنون .

« قال إني ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » (١٣) .

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الحب وأوحينا إليه .
 اتنبأهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . . . (١٥)
 وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام
 وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معلومة
 وكانوا فيه من الزاهدين (٢٠)

ولقد حمل يوسف إلى مصر حيث كانت تجارة الرقيق من البنين
 والبنات الآسيويين تلقى يؤمئذ من الرواج ما يدل عليه ما كشفت عنه
 بردية في متحف بروكلين بنيويورك الآن (١) . فقد جاء فيها ذكر
 ما يُدعى على أربعين آسيوياً من نيف وثمانين كانوا يعملون خدماً في
 بيت واحد في عصر الأسرة الثالثة عشرة قبيل مجيء الهكسوس . ولم يكن
 من سبيل بحكم ما هو معروف من تاريخ تلك الفترة وأحوال مصر المتواضعة
 أن يكون هؤلاء مع إخوان لهم في بيوت أخرى ، من أسرى الحروب في زمان لم
 تقع فيه حروب .

بيع يوسف إذن في مصر لعزير مصر « فوطيفار » ، حيث أنزله
 منزلاً طيباً بيته وأوصى به امرأته .

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا
 أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل
 الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ
 أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين »

(٢١ - ٢٢)

على أن الأيام لم تشأ أن تصفو ليوسف على طول المدى ، فقد أقام في
 بيت العزيز مكرماً متمتعاً بثقة سيده الذى عهد إليه بشئون بيته وماله ،

Pritchard, op., cit, p. 553;

(١)

William G. Hayes, A Papyrus of the Late Middle Kingdom
 in the Brooklyn Museum (Brooklyn Museum 1955).

ولكنه كان في أثناء ذلك ينمو ويتفجر جسده بالقوة الناضجة والشباب الزاخر ، فيروق امرأة العزيز .

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب »

(٢٣ - ٢٥)

هنالك ادعت عليه السوء ورمته بالعدوان واتهمته عند زوجها بالخيانة والغدر واستعدته عليه وطالبت بتعذيبه وسجنه .

« قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجنّ أو عذاب أليم » (٢٥) .

فما كان من الزوج حين دفع يوسف عن نفسه التهمة عليها حين « قال هي راودتني عن نفسي » إلا أن يحقق قولهما .

« وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو الكاذبين . وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قدّ من دبر » ، وتحقق من كذب امرأته وخيانتها ولاح نصب عينيه شبح القضيحة والذل : « قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » . (يوسف ٢٨ - ٢٩)

غير أن أنباء القضيحة سرعان ما تترامى إلى الناس ، وطلق النساء خاصة يتحدثن بسقطة امرأة العزيز ويتناقلنها بينهن .

« وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين » (٣٠) .

وأي ضلال أشد ومضيق أنكى من أن تراود سيدة من نساء الحكام

عبداً لها وفقى من خدمها يصغرها سنّاً ومنزلة ومكانة إن كان له أو لمثله في المجتمع مكانة . ولكنها مع ذلك قد كانت تتلمس لنفسها العذر فيه ، وترى ألا قبيل لها ولا لامرأة تراه بغير ما فعلت .

« فلما سمعت بمكرهنَّ أرسلت إليهن وأعتدت لهنّ متكأ وآتت كل واحدة منهنّ سكيناً ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأيتهن أكبرنه وقطعن أيديهنّ وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا مملوك كريم . قالت فذلكنّ الذى لمّتنى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لميسجننّ وليكوننّ من الصاغرين . قال ربّ السجن أحبّ إلىّ مما يدعونى إليه ولا تصرف عني كيدهنّ أصبّ إليهنّ وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهنّ إنه هو السميع العليم . » (يوسف ٣١ - ٣٤)

فقد تحولت الأمور إذن إلى صراع بين المرأة والفقى ودخلت كما يقال في دور من العناد والمغالبة غريب . هى بتهالكها الذى انكشف عن تبجح سافر وكبر خائر ؛ وهو بإصراره الذى لا سبيل له إلا إلى المضى فيما بدأ وأعلن للناس . ولكنه مع ذلك لم ينبج منهم ومن كيدهن وتحالفت عليه قوى البغى فكان لهن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الأبلج وأساء إلى الخلق المتين .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين . »

صورة دقيقة لمجتمع فاسد آثم ، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس في مصر من فساد وانحلال ، ولو لم يكن لدينا عن مصر في ذلك الزمان سوى تلك القصة لاتخذناها وحدها دليلاً على مجتمع يسوده الأجانب والغرباء ، ولنفيها عن المصريين ونسبناها إلى ذلك المجتمع الأجنبي مطمئنين ، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء في مصر وتخرج عن سليقة المصرى بما ركب فيه من الأثفة والحمية والكرامة والكبرياء ،

ولقد نظرنا — كما قدمنا — إلى بعض قصص التوراة لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصصها وأدنى إلى مجتمعتها ، على حين تنبو عن مجتمع المصريين الأصيل وتخالف تقاليدهم وأذواقهم خلافاً كل خلاف . فما كان لمصرى أن يحتمل أو يسكت كما أراد يعقوب وقد تعرضت ابنته دينة لاغتصاب شكيم ابن حمور . (تكوين ٣٤ : ١ - ٣٠) أو يصبر عن مثل ما روى عن بكر بنى إسرائيل راعويين إذ : « ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع إسرائيل » (تكوين ٣٥ : ٢١) . ولا كان المجتمع المصرى ليطبق ما فعل داود مع أوريا وزوجه كما قدمنا ، ولا ما اقترف ابنه أمنون بن داود وقد احتال حتى اغتصب أخته ثامار بنت أبيه داود اغتصاباً (صموئيل الثانى ١٣ : ١ - ٢١) فلقد كان المجتمع المصرى القديم مجتمع التقوى ومكارم الأخلاق ، وكان حكمه على مثل تلك الجرائم عنيفاً قاسياً ، فلم يكن المصرى ليقبل فى الحياة والحنا هوادة ولا ليناً ، وكان « اسم الزوجة حين تتهم بالإفك عند زوجها » مضرب المثل فى البشاعة والمقت كما ورد فى قصيدة المصرى الذى كره الحياة وحدث نفسه بالانتحار وانحدرت إلينا بالحظ الهيرطى من عصر الدولة الوسطى على بردية يحفظها اليوم متحف برلين (١) .

قصص المصريين وآدابهم مرآة لخلقهم القويم

وما يروى من قصص المصريين ما يصور مثلهم العليا التى كانوا بها يستمسكون ، ويصور ما تغلغل منها فى حياتهم وأخاديشهم ولو جرت للتسلية وإزجاء الفراغ . روى عن خوفو صاحب الهرم الأكبر فى بردية وستكار (٢) أنه جلس يوماً وحوله الأمراء من بنيه يتحدثون إليه ويسمرون

(١) A. Erman, Gespräch eines Lebensmüden mit Seiner Seele (1896).

(٢) A. Erman, Die Märchen des Papyrus Westcar (1890) 1, 20-4, 10; G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique (Paris 1949), p. 70 - 77.

معه ، فحدثه « خفرع » من عهد سلف له من الملوك عن كاهن من حاشيته المقربين يدعى أوبا أوتر ، كانت زوجه تعلقت بفتى من أهل المدينة كان ينسل إلى قصر ذلك الكاهن فينفق معها — في غياب زوجها — سحابة النهار في كوخ منغل في حديقة القصر عند البحيرة فيها . حيث ينزل الفتى ليغتسل في أعقاب خلوته . على أن ناظر الحديقة ، وقد سدرت المرأة في غيها ومضت في ضلالها زمنًا ، قد عمد فشى بخبرها إلى زوجها ، الذي صنع من الشمع كهية التمساح فألقاه في البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم ، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه ونزل به إلى الماء . ثم تحدث الكاهن بخبر زوجته الخاطئة إلى الملك ودعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكي التمساح ، هنالك وقف الملك على حافة البحيرة مع الكاهن الذي نادى التمساح فخرج إليهما بفريسته ، وأمره الملك — وقد فزع من منظره — أن « خذ مالك » فنزل به التمساح إلى الماء « ولم يعرف له أحد بعد ذلك من مصير » ثم طلبت الزوجة الخائنة بخيانتها فاقتيدت إلى ساحة شمالي القصر حيث أحرقت علناً وألقي رمادها في النهر ، وذلك عقاب الزانية المحصنة في ذلك الزمان .

وثمة قصة أخرى من قصص المصريين بدا حرصهم فيها على رفع سلطان العدل وحرمة الأخلاق ، إذ انحدرت إلينا على بردية استقرت اليوم في المتحف البريطاني باسم بردية « تسستر بيتي » الثانية^(١) . قصة بطلها الحق والباطل ورد فيها أن الحق كان له ولد من زواج لم يشهر للناس ، فلما أرسل إلى المدرسة سمع من أترابه غمزاً في نسبه وتساؤلاً عن أبيه المجهول ، فعاد الولد إلى أمه يسألها عن أبيه قال : « ما اسم أبي حتى أخبر به زملائي فإنهم يقولون في خبث أين أبوك . كذلك يقولون ويؤلونني » . ولقد أوجب

Hieratic Papyri in the British Museum, 3rd series, Vol. I, (١)

p. 2 - 6 & Vol. II, pls 1 - 4 (London 1935); Lefebvre, op. cit.,

p. 159 - 168.

الولد - مع صغر سنه - على أمه الموت حين أوشك أن يتهمها ويظن بها الظنون ، وحكم بما نستنتج أنه عرف المصريين^(١) يومئذ وتقاليدهم ، بأن يدعى رجال أسرتها ليجهوها بذنبها ويلقوا بها إلى الهلاك في النهر إلى تمساح يفترسها جزاء وفاقاً لما اقترفت . وفي ذلك حكم من المجتمع المصرى شاء مصنف القصة أن يجرى به لسان صبي على من كانت له الردء والسند والحنان ؛ حكم يصدر من ولد على أمه إعلاء لما لا يجاوز ولا يعلوه شىء من دعائم الفضيلة والأخلاق ، ولا شفيع عنده في ذلك ولو كان البر بالأمهات .

ولقد حفظت لنا فضلاً عن ذلك قصة كانت أقرب شبهاً بقصة يوسف وإن خالفتها في موقف الزوج المخدوع . تلك هي قصة الأخوين التى يحفظها المتحف البريطانى على ما يسمى بيردية دور بينى^(٢) . وهى تجرى - كما شاء لها المصنف - في ريف مصر حيث الزراعة عماد الحياة ، وحيث النظام الاجتماعى الذى يوجب على الأخ الأكبر القوامة على أخيه اليتيم ، فيضمه - كما فعل العزيز - في بيته بينه وبين زوجته ، حيث كانا له بمثابة الأب والأم . والرجل يعتمد في ذلك على ما ساد المجتمع يومئذ من إخلاص الزوجة وأمانة الأخ وعرفانه ، ثم لا عاصم أو رقيب بعد ذلك إلا الفطرة السليمة والحلق القويم ؛ وقد مضت القصة فروت أن الأيام قد تتابع على الأخ الصغير ، وهو يشب وينمو ويتفجر جسده بشباب ناضج وقوة عارمة ؛ وتنظر الزوجة إلى سلفها فيعجبها شبابه الفائر العنيف فتراوده عن نفسه - كما فعلت امرأة العزيز - غير أن الفتى يغضب لما تردت فيه زوج أخيه التى كانت له - كما قال لها - بمثابة الأم ، من الحيانة والإسفاف ؛ وينتهرها انتهاراً عنيفاً ، ولكنه يعدها بكتمان أمرها عن أخيه الذى قام منه بمنزلة الأب . على أنها تخشى علم زوجها بما وقع منها فتبيت في نفسها أمراً .

Möller, Hieratische Lesestücke II (Leipzig 1927) pl. (١)

1 - 20; Gardiner, Late Egyptian Stories (Bruxelles 1932), p. 9 - 26;

Lefebvre., op. cit. ,p. 137 - 158.

فإذا عاد زوجها إلى البيت مع المساء ألقي البيت مظلماً وألفاها راقدة تتأوه من مرض وألم مزعوم ، فلم تنهض لاستقباله أو إنارة البيت وصب الماء له . ثم زعمت له حين سألها أنها تعرضت من أخيه بعد أن راودها عن نفسها للعدوان ومحاولة الغصب ثم الضرب . وإذا بالأخ الأكبر يثور ثورة هائلة كأنه الفهد الضارى ويشحذ خنجره ليفتك بأخيه ، ثم طفق يطارده حتى كاذ أن يدركه لولا أن حال بينهما نهر غاص بالتماسيح فوقفا على ضفتيه يتحدثان . واستطاع الفتى أن يشرح لأخيه الحق ويبرئ نفسه ، وإن كان قد أعلن إليه أنه لن يساكنه ولن يقيم في بلد هو فيها بعد اليوم ، ثم رحل عنه إلى وادي الأرز في لبنان . وعاد الأخ الأكبر حزينا كاسف البال إلى بيته ، حيث انتقم من زوجته بقتلها وإلقاء جثتها للكلاب ، وذلك أبشع صور الانتقام في نظر المصري القديم ، حيث الحرمان من الدفن والشعائر الجترية حرمان من الحياة الأخرى وقضاء بالفناء الأبدى الذى كان يفرق منه كل مصرى ويخشاه على الجسد والروح جميعاً .

كان ذلك فعل الفلاح المصرى — ومعه رأى المؤلف المصرى والمجتمع المصرى — حين تلقى النبأ بخيانة زوجته ، وشتان بينه وبين عزيز الهكسوس حين تلقاه عن زوجته هادئاً وقد شهد شاهد من أهلها ، فما زاد على أن قال : « استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » . وقد كان من أمثلة المصريين السائرة ما يدل على مسئولية الرجل عن بيته ووجوب اليقظة لزوجته حتى يجنبها مواطن الزلل ، فإن زلت كان ذلك عن إهمال أو تراخ منه ، فكأنما وقع برغبته ورضاه إذ قالوا فى أمثالهم : « إنما تنكح المرأة برغبة زوجها » وفى ذلك المثل من البشاعة والتحريض ما يثير الرجل — أى رجل — ويقميه على التحفز لكل شبهة تحوم من حول زوجته أو تنال من سمعتها وسمعته أجمعين ، ولذلك كانت قسوة العقوبة التى لم تأخذهم فيها شفقة أو رحمة

وحرضت عليها تعاليم عنخ شاشانقي^(١) في قوله : « لا تقتل حية وتترك ذيلها » .
 وفضلا عن ذلك فقد كان المصري أدنى إلى الطهر والتعفف بحكم ورعه
 وتقواه وبحكم وثيق إيمانه بأن الجريمة لا تفلت بغير عقاب ، وأن الجزاء
 عاجل من جنس العمل ، إذ رسخ في أعماقه من قبل المسيح ما قال المسيح
 عليه السلام : « بالكيل الذي تكيلون به يكال لكم ويزاد » ، وعن تلك
 العقيدة صدرت تعاليم عنخ شاشانقي في قوله : « من نكح زوجة على
 سريرها نكحت زوجته على الطين » و « من نكح زوجة قتل على عتبة
 دارها »^(٢) .

ولم يكن المجتمع المصري أيام الفراعنة - على كل حال - مجتمعاً من
 الملائكة والأولياء الذين لا يقتربون إثمًا أو يرتكبون سوءاً ، ولن نعدم المارق
 ولا الخارج في مجتمع أننى كان . ولكن الحديث إنما يعالج صبغة المجتمع
 الغالبة وخصائصه البارزة وتقاليده السائدة وموقفه من المارقين . وشتان بين
 مجتمع يرضى أو يتغاضى عن السوء ومجتمع يرفضه ويأباه ويعاقب عليه .
 ومن شواهد الحفاظ على الفضيلة والحياة السوية ما كتبه رجل إلى زوجته
 المتوفاة التي كانت فيما يبدو أسن منه قال :

لقد اتخذتك زوجة حين كنت يافعاً

وظللت معك وقد تقلدت وظائفي

ظللت معك ولم أبعدك ولم أحزن قلبك

فعلت ذلك وقد كنت شاباً أتقلد كل خطير من المناصب لفرعون دون

أن أبعدك

قائلاً لقد ظلت معي (دائماً)

(١) Glanville, Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum Vol. II. The Instructions of Onkhshashanky (London 1955).

op. cit., p. 49, 53.

(٢)

فما وجدتني أهملتك بدخولي منزلاً آخر
 ولما مرضت . . . طلبت طبيباً ماهراً يمرضك
 ثم بكيته مع أهلي
 ولما قد أمضيت ثلاثة أعوام مقيماً (وحدي)
 لا أدخل بيتاً (أى لا يتزوج)
 برغم أنه لا يصح لمثل أن يفرض عليه ذلك (١) .
 وإذا قال آنى لابنه وهو يعظه :
 احذر المرأة الغربية المجهولة في بلدتها
 لا توجه إليها لحاظك ولا تقارف إثمًا معها
 إن البعيدة عن بعلمها لتقول دائماً لك إنى جميلة
 وفي غيبة الرقباء تتصدى لك بشبا كها
 ما أشدها من خطيئة تستحق الموت إذا المرء استجاب لها .

تلك دعائم المجتمع المصرى من رفض الزلل والحيلة على السوء ، حيث
 قامت من نفس المصرى فى مواقع العقيدة التى ألهمته القوة فيما حل به من
 ملهمات وما نزل به من نوازل وخطوب ، فكانت له الذخيرة التى أخرجته من
 المحنة بعد المحنة واجتازت به النكسة بعد النكسة .

وحسبنا من دليل على أصالة نفسه ونبل مشاعره ما انتهى إلينا من فيض
 آثاره وآيات فنه على مدى الأجيال والقرون وتقلب الأحقاب والعصور ،
 فإذا بها على سمت من الجلال والوقار حتى لتكاد تخلو مما ينبو عن الذوق
 السليم أو يند عن الخلق القديم .

ولقد أقام المصرى تاريخه كله على رفض ما لا يستقيم مع خلقه والحيلة
 عليه والتحذير منه ، حريصاً على ما وجد آباءه عليه من العادة والتقليد

عاكفين ، فكان استمساكه بذلك أماناً يقيه من محنته وقاءً يرده عن عثراته .

ونستطيع أن نتبين هذه القيم الأخلاقية الرفيعة فيما تواتر إلينا من نصائح الآباء إلى الأبناء وما كانوا ينقشون في قبورهم من إشادة بصلاحهم في القول والعمل وبرهم بالناس واحترام حقوقهم ، وما ينبغي أن يترود به الرجل من دنياه لأخراه من صالح الأعمال . وما من شك في أن المصريين منذ الدولة القديمة قد كانوا يؤمنون بالأجر والمثوبة في الآخرة على ما قدم الإنسان في الدنيا من خير ، ويؤمنون بما سوف يتولاه « الإله العظيم » فيهم من الحساب أو « فصل الخطاب » على حد تعبيرهم . ولقد كان الوازع الديني وإيمان الناس بالحساب عميقاً في النفوس ، وكان المصريون في معاملاتهم بعضهم مع بعض يعتمدون في ضمان حقوقهم وسلامة أملاكهم وقبورهم على ذلك الوازع الخلق والديني ، وعلى استشعار الخوف من الحساب في الآخرة ، ولذلك فقد كان ديدنهم في القبور منذ الأسرة الرابعة تذكير الناس ممن تسول له نفسه الاعتداء على القبر بذلك الحساب الذي سوف يتولاه العظيم في مكان الحساب في الآخرة . وبين لنا ما لهذا الإيمان من وازع في النفوس ما حدث به « رموكا » من الأسرة الرابعة عن ورعه وتقواه بأنه إنما امتنع عن أن يرزأ أحداً فيما يملك لأنه تذكر حساب الإله في الآخرة .

ونخلاصة البر الذي يؤهل الإنسان للحياة الرغدة في الآخرة أن يكون طيب الذكر حسن الأحدثه بين الناس وأولى القربى بنوع خاص ، فيكون براً بأمه وأبيه ويظفر بحب إخوته وتكريم أقرانه وأصحابه وأن تظفر الزوجة بحب زوجها وتكريمه ، وأن يكون حلو الشائل يتحدث بالحق ولا يقول إلا طيباً ولا يردد إلا طيباً ولا يتقول على أحد بسوء .

ثم بلغوا أقصى مراتب البر أن يرحموا الفقراء والمساكين ويرزقوهم من أموالهم فيطعمون الساغب ويكسون العارى ويتعهدون من يوافيه أجله ممن لا ولد له بالدفن والأكفان ، ويتصدقون بالعون والمساعدة على من قعدت به السبل عن

أن يكون له زورق يعبر به ، بل يحرص المرء على ألا يبيت أحد من الناس وهو غير راض .

وقد كان احترام الحقوق وكف النفس عن الغضب والظلم وحرمان الناس أشياءهم فضيلة أخرى يرجو الناس بها المثوبة بعد الموت ، وكانوا كما نقول نحن اليوم يكسبون في الأعمال الثواب من الله ويبتغون عنده الوسيلة والمنزلة بهداية الناس إلى حمده ، وذلك كما كتب إيدو في قبره : « لقد جعلت الله يحمد من المفنين الذين صنعوا هذا القبر إذ أرضيتهم بكل شيء طلبوه مني حباً في أن أكون معظماً عند الإله » . وكانت دوافعهم الخلقية هذه كلها صادرة عن إيمان بالإله الحكيم العدل الذي يملك الثواب والعقاب خوفاً وطمعاً ، وفي ذلك يقول أحد الأشراف : « ما ظلمت أحداً فيما يملك حتى يشكوني إلى إله المدينة » ، وكذلك فقد كان ينبغي على من دعت قدرته إلى ظلم الناس وتسخير بناتهم أو غصب أملاكهم أن يتعففوا عن ذلك كما أعلن حنكو في قوله : « لم يحدث أن سخرت بنت أحد »^(١) .
وبعد ، فهذا مجتمع وذلك مجتمع .

هذا مجتمع مصر الصريح وذلك مجتمع الدخلاء القبيح .
ونعود بعد تلك الوقفة إلى يوسف في بيت العزيز .

فقد استطاعت امرأة العزيز مع ذلك أن تدبر له عند زوجها وتآمر عليه حتى أرسله إلى السجن ، « ودخل معه السجن فتيان » . (٣٦) .
ثم تشاء المقادير التي دفعت بالأحلام إليه في موطنه ومسقط رأسه قبل أن يخرج منه أن تدفع بين يديه بحلمين رآهما الفتیان من صاحبي السجن لتخرجه من السجن . « قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين » (٣٦) .

(١) انظر Sethe, Urkunden des Alten Reiches Bd I, S. 46, 150,

170, 171, 173, 80, 251, 255, 186, 120, 75, 71, 77 . . . etc.

وتصدي يوسف لتأويل الحلمين قال : « يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » (يوسف ٤١-٤٢) وقد كان خرج الفتیان كل لمصيره . ويشاء الله لكى يحق الحق بكلماته ويحكم بأمره أن تزور الملك الطيوف والأحلام .

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يَايها الملاء أفتنوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (٤٣ - ٤٤)

وإذا برقيق يوسف فى السجن يفيق . « وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » (٤٥) ، وقصد الفتى إلى يوسف يسأله تعبیر الحلم ويستفتيه فيه « يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » (٤٦) .

« قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون » (٤٧ - ٤٨) ثم عاد يوسف فأضاف بعد أن عبر حلم الملك أو حلميه فتكهن بما سوف يعقب السنين الشداد من الخير الذى يعم الناس فقال : « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يَغاث الناس وفيه يعصرون » (٤٩) . قال النسفى فى تفسير ذلك : « أى يجاب مستغيثهم وفيه يعصرون العنب والزيتون والسمن فيتخذون الأشربة والأدهان ، ويقول ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجىء مباركاً كثير الخير غزير النعم » .

وقد كان إذا انقضت أعوام المجاعة — وهى دائماً أو تكاد تكون

من أثر انخفاض النيل - عاد النيل إلى وفائه المعتاد وارتد الناس إلى حياتهم الأولى وارتدت إليهم حياتهم الأولى ، فيثرون الحب ويرجون الثمار من الرب كما في وصف عمرو بن العاص . وربما أتت الأرض بعد ذلك برزق موفور بعد الذي نالت - على الرغم من أصحابها من راحة طويلة وما تخلل شقوقها الجافة من الأزوت . وإلى ذلك أشار أميني أحد حكام الأقاليم إذ قال : « ثم جاء النيل بأمواه عظيمة تحمل القمح والشعير وكل شيء » .

فقد تحدث القرآن بما بشر به يوسف عن رخاء يعم مصر من بعد السبع الشداد ، وكذلك تواتر إلينا من أخبار تلك الحقبة من تاريخ مصر نص يكشف عما تمتعت به البلاد أواخر حكم الهكسوس من وفرة ورخاء كاد يلهى المصريين أو بعض المصريين من كبار أصحاب الأرض الأثرياء ، إذ ضاق كاموسى ملك طيبة بمكانه بين آسيوى فى هواره فى الشمال ونوبى يحكم فى الجنوب فما كان جواب بعض جلسائه إلا حب السلامة وإيثار العافية قائلين : حقاً لئن كان الآسيويون قد امتدوا حتى القوصية فإزال خالصاً هائناً لنا نصيبنا من مصرنا . فاليفانتين قوية والأرض الوسطى معنا حتى القوصية وأجود حقولها تحرث لنا، وثيراننا ترعى فى الشمال والقمح والشعير يرسل إلى خنازيرنا ولن تؤخذ منا ثيراننا .

المجاعات فى مصر

وقد كانت مصر عرضة للمجاعات وفترات من تدهور الإنتاج الزراعى والحيوانى على مر العصور . وقد كان ذلك فى أكثر الأحيان من آثار اضطراب النيل وامتناع فيضه وإخلاله بالوفاء كما تعود وتعود منه الناس كل عام . فإذا تدهور وأقام على نقصانه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التى تتحرق شوقاً إليه وتنتظر العام يكله أو نجلة للقائه ،

وعندئذ فلا رى ولا استنبات ثم لا زرع ولا ضرع فتكون الكارثة
التي تنزل بالبلاد والعباد .

وكان فيض النيل على كل حال صاحب الزمام في الحياة المصرية
ومفتاحها . به تكون الزراعة التي تدير أهلها عامهم كله ، وبفضله
تعلموا منذ أقدم العصور ادخار الحصيد والقصد في إنفاقه حتى يعود
الفيض الجديد ، فلقد أعتزنا منذ حضارات العصر الحجري في مصر ،
وطلائع تاريخها على مواضع ادخار الغلال . بل لقد كان انحباس
النيل ونضوب موارد الدولة وثيق الصلة بما كان يتزل بها من الضعف
السياسي وتحلل السلطة المركزية وتدهور الأمن واضطراب النظام ،
فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع شراً مستطيراً
وشقاء متصلاً قائماً يحل بالناس فيترك في نفوسهم وعقولهم أثراً لا يمحي
أولا يكاد يمحي ، ويقيم في أذهانهم ذكريات تصور بعضها عبارة لهم عن
عام اشتدت قسوته واستشرى فيه الجوع في الناس والحيوان فسموه
عام الضباع . وهو يذكرنا بما أطلق الناس على عام القحط الذي نزل
بالمدينة أيام عمر بن الخطاب من عام الرمادة .

وقد يبالغ النيل في فيضيه أحياناً فتتعمم أمواهه وتضري أمواجه
فاذا هويئذفع طوفاناً عنيفاً مدمراً مغرقاً كل شيء ، ثم لا يكاد ينحسر
عن الأرض إلا وقد انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الإنتاج
أيام الحصاد سيئ المغبة ، وإن لم يبلغ ذلك في سوئه مبلغ نقص الماء
ولقد جاءنا من الأنبياء عن فيض النيل أنه طما على عهد بعض الفراعين
وأنه ارتفع خاصة في عهد « طهرقة » من الأسرة الرابعة والعشرين
حتى غمر الأرض من معبد الأقصر .

ولقد كانت الثورات الداخلية والحروب الأهلية وما قد يسود
البلاد من كوارث ومن فساد النظام وضعف الرقابة أثره الهائل وثقله
المبهِظ في تقاعس الناس وشل همهم عن العمل وانصرافهم عن الإنتاج ،

ثم فيما يترتب على ذلك من شكوى الناس من الجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . نسوق من ذلك شاهداً من حديث لبعض الحكماء من عصر الفترة الأولى يقال له إبيوور قال : « إن الرجل ليذهب إلى حرثه وترسه معه ، انظر ، لقد شحبت الوجوه وأصبح الرماة متحفزين في كل مكان ، لقد انعدم رجل الأمس ، ولكن اللصوص في كل مكان إن النيل ليفيض ولا من يحرث ، وكل امرئ يقول لسنا ندرى ماذا خل بالبلاد ، ولقد عقلت النساء فهن لا يحملن ، وصار الكثير من الموتى يدفنون في النهر . . . ودمرت المدن وأصبح الصعيد مقفراً وزحفت الصحراء على البلاد » (١) .

ومهما يكن من شيء ، فلقد بليت مصر من القحط والمجاعات الكثير على مر العصور . وكان الصعيد — بخاصة — بحكم ضيق الوادى وارتفاع أرضه عن النيل وعسر الري فيه أدنى إلى المجاعة وأقرب إلى القحط الذى كان أفعل في أرضه وأبعد أثراً في أهله مما كان في الدلتا المتسعة الخصيبة ذات الرزق الوفير . وربما بلغت المجاعة من العنف والشدة حد القسوة التى تكاد تهوى بالناس من فطرة الإنسان السوى إلى ضراوة الوحش الوالغ في الدماء ، فلقد نزلت بمصر مجاعة على عصر الفترة الأولى وصفها شريف من أهل الصعيد يقال له « عنخ تبنى نخت » قال : « وكان الصعيد بأسره يموت من الجوع والرجل يأكل أطفاله » (٢) .

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير

(١) Pritchard, op. cit., p. 441.

(٢) وقد كان من أعنف منازل بمصر من المجاعات في العصور الوسطى ما وقع في عهد الخليفة المستنصر الفاطمى من جماعة حملت الناس على أكل القطط والكلاب ، بل وبسوغ لهم أكل اللحم الآدمى الذى بيع علناً في الأسواق .
انظر : S. Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages
(London 1914) p. 146.

إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الرى لأيام الجفاف ومن يسرهم لعسرهم ومن رخا بهم لشدتهم . وكانت حكمة الملوك والحكام وحسن تدبيرهم خليقاً أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون . ولو قد استمعنا — ولسوف نسمع بعد قليل — لأحطنا بما كتبوا خبراً مفتخرين بما كانوا يومئذ يجتريهون لرزق الناس وغدوهم ، وبما كانوا يبذلون من الجهد فى استنتاج كل شبر من الأرض صالح للزراع تحت سلطانهم ، وبما كانوا يدخرون من الحصيد لتلك الأيام ، أو بما كانوا يجلبونه من أرض يتوفر فيها الرزق إلى أرض هى فى حاجة وعوز إليه ، وذلك كله مع حرص على شمول العطاء وعدالة التوزيع .

فى أسبوط كتب « نختي » الثانى من الأسرة العاشرة يتحدث عما جلب من قمح الشمال وادخاره فيقول : « إننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الأرض فى جفاف ، فأعشت مدينتى . . . وأذنت للصغير أن يحمل لنفسه من قمح الشمال مع زوجته وللأرملة مع ولدها ونزلت عن الضرائب التى وجدت آبائى قدروها » (١) .

أما « جفاى » من عصر الأسرة الحادية عشرة فلم يجد فى مدينته من حاجة إلى استيراد قمح من الشمال ، وإنما عمد إلى ادخاره فى قصره وكلف بذلك مساعده سنتى الذى يروى ذلك فيقول : « لقد كلت قمح الصعيد الذى يحيط تلك المدينة بأسرها فى قصر الحاكم أمير الكهان « جفاى » فى سنين الضيق والشدة » (٢) .

وأما فى بنى حسن من عصر الأسرة الثانية عشرة فقد تحدث « امينى » عن زيادة الإنتاج فيقول : وكان أن حدثت أعوام المجاعة فكان أن حرثت الحقول من إقليم الوعل حتى تخومه الجنوبية والشمالية ،

Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne (Le Caire (١)

1936), p. 101 f.

op. cit., p. 111.

(٢)

وأعشت أهلها وكفيتها غذاؤه فلم يبق جائع فيه ، إذ أعطيت الأيم كالسيدة ذات الزوج ولم أميز عظيمًا على صغير . ثم جاء النيل بأمواء عظيمة حملت القمح والشعير وكل شيء ، ولم يحدث أن أثبت في السجلات ضرائب على الحقول (١) .

وكذلك فعل في الكاب حاكمها پي من الأسرة الثالثة عشرة التي سبقت قليلًا عصر يوسف والمكسوس قال :
« لقد كنت أكس القمح المطلوب الجيد ، وكنت يقطاً في فصل البذر فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت القمح مدينتي في كل مجاعة » (٢) .

على أن العلماء على كثرة ما قرءوا من أخبار المجاعات في مصر القديمة إنما يقفون خاصة موقف الفاحص المتأمل من مجاعة أخرى نقشت أخبارها على الصخر في جزيرة سهيل جنوبي أسوان (٣) . ولئن كان الخبر منسوباً إلى العام الثامن عشر من حكم زوسر رأس الأسرة الثالثة ، فإن الذي لاشك فيه أنه إنما نقش في تلك الجزيرة بعده بعشرين قرناً من الزمان ، نقشه كهان خنوم على عهد البطالمة في مصر ، ولعلمهم نقشوه في حكم بطلميوس العاشر في أكبر الظن (شكل ٣)

ولقد وقف العلماء على ما ورد فيها من أن المجاعة إنما حلت بمصر سبع سنين ، وعلى ما روى من أن الملك زوسر دعا وزيره الحكيم ايمحتب ليستفتيه في تلك النازلة التي أحزنته ، وليعلم علم هذا الذي أصاب النيل فحبسه عن المجيء في عهده سبع سنين فذوت الحبوب وصوحت الثمار وقلت الأقوات حتى لكأن الناس قد حرموا الأنفاس ، فلم ترقاً لطفل

op. cit., p. 17, 114.

(١)

ibid

(٢)

op. cit., p. 132 ff; P. Barguet, La Stèle de la famine à (٣)

Sehel. (Le Caire 1953); Pritchard, op. cit., p. 31; cf. Brugsch, Die Biblischen sieben Jahre der Hungersnoth (Leipzig 1891).



(شكل ٣)

دمعة وأقام الشباب على الانتظار ، على حين امتلأت القلوب أسى فأنحنوا على أطرافهم مدقعين ، واشتدت الحاجة برجال الحاشية وغلقت المعابد وعم الحزن الناس . ثم يمضي النص فإذا الرب خنوم - رب أسوان يتجلى للملك في منامه فيعده وعداً حسناً ، وإذا هو يعلن إليه أن النيل لن يحتبس بعد عامه هذا ، وأن الفيضان سوف يقبل فيعم البلاد فينبت الزرع والفاكهة وتنقضي أيام المجاعة . فلما أفاق الملك قرر لربه هذا وقف الأرض من أسوان جنوباً حتى تاكومسو ، وذلك فيما عرف بلفظه

اليوناني باسم دلوديكا سخونيوس بمعنى الفراسخ الاثني عشر .
 فإن النص ليتحدث عن مجاعة امتدت سبع سنين وعن مشورة
 استشارها الملك من وزير عرف بالحكمة والموعظة الجسنة ، وعن حلم
 رآه . وغير بعيد أن يكون هذا النص صوتاً من واقع بعيد وأن كهان
 خنوم حين كتبوه على عهد البطالمة قد كانوا تحت تأثير ما كان شائعاً
 يومئذ من أصداء الماضي السحيق ، وبما ورد في التوراة من أخبار
 السنين السبع الشداد التي جرت بها السنة من كان بمصر يومئذ - وكانوا
 كثرة - من يهود . وإلى يهود مصر خاصة تعزى ترجمة التوراة إلى
 اليونانية من قبل إثبات هذا النص بما يقرب من قرن من الزمان ، وذلك
 فضلاً عما كان لليهود في اليفانتين من مستعمرة تطل بحكم الموقع على
 سهيل .

ولقد أقبل يوسف على مصر وهي ذات حضارة عريقة ونظام
 دقيق ضارب في السنين ، إذ كانت الضرائب منذ القدم في مصر
 وثيقة الصلة بفيض النيل ومنسوب مائه ، حيث كانت تفرض على الناس
 مما تنبت الأرض من بقلها وكتانها وحبها وبصلها ، وما يستنتجه الناس
 من زيت وجعة ونبيد ، وكان الحب من قمح وشعير أهم ما تستقبل
 خزائن الأرض حيث يقوم عليها شريف من كبار رجال الدولة يحمل
 أمير الأهرام (أمير شنوني) كان يشرف على كتائب من العمال والمساعدين
 والكتاب ، فمنهم من يقيس الأرض أو يكيل الغلال أو يثبتها في الدفاتر
 ويحفظها في الأضابير ، وكان على أمير الأهرام أن يرفع إلى فرعون
 أمر هذا كله وأن يحيطه بمقدار ما حصلته الخزائن خيراً . وكان فرعون
 يحكم منصبه ومكانه من الناس مسئولاً عن رفاة الرعية وكف البؤس
 عنها إن تعرضوا له . وكان حكام الأقاليم إنما يصدرون في أقاليمها
 كما شهدنا - عن مثل تلك المسئولية وذلك الوعي الناضج فكلهم راع
 وكلهم مسئول عن رعيته ، ولقد قدمنا من الأحاديث ما يكشف عن

وعى الحكام بذلك أشد الوعي وأرسخه ، كما انحدر إلينا عن أمنمحات الأول رأس الأسرة الثانية عشرة ما يكشف عن تلك المسئولية التي يستشعرها الملك حيث يقول :

إني أنا زارع الحب ومحِبُّ رب الحصيد
لقد حياني النيل في كل واد
فلا جائع في عهدي
ولا ظمآن كذلك .

كان الهكسوس إذن قد أقاموا في مصر ملكاً لهم حيث استقر بهم المقام في الدلتا واتخذوا عاصمتهم شرقياً في هواره (حت وعرت) غير بعيد من مواطنهم في آسيا ، ثم لم يلبث الهكسوس حيث استقروا في بلد له حضارته وثقافته أن أخذوا ما استطاعوا عنه وانتهلوا ما ساغوه من علمه ، ثم لم يلبثوا أن اتخذوا لأنفسهم نظم الملك وألقابه المصرية الخالصة ، على أن الصورة التي يوحى بها القرآن عن مجتمع الهكسوس في مصر أيام يوسف أنه مجتمع أخلد إلى الرفاهية المفسدة فتراخت في أهله النخوة وتداغت فيهم الهمة عن جليل الأمور ، حتى عز في الدولة الرجال من أولى الحكمة والبصيرة وأهل العفة والأمانة وأصحاب الحزم والتدبير . وكيف لرجال فقدوا الحزم على بنوتهم وانحسرت غيرتهم عن أهلهم أن يتولوا دولة ناشئة في بلد غريب ، ولما يرسخ كعبها في أرضه ، لذلك فقد كان الملك في حيرة من أمره يتلمس الرجال تلمساً .

ولا شك أن تعبير الحلم قد أعجب الملك إعجاباً شديداً ، فما كاد يسمعه ويقدر ذكاء الفتى السجين الذي عبره حتى أرسل في طلبه . ولكن الفتى لا يجيبه ولا يسرع إليه حتى يضرب مثلاً آخر في الشجاعة وعزة النفس ، فهو لا يخرج من السجن ولا يريد أن يخرج منه أو يقصد الملك حتى يتم التحقيق فيما نسب إليه ظلماً من جريمة دفعت به إلى غيابه ، وحتى تظهر براءته ويرد اعتباره بشهادة النسوة اللاتي شهدن

هذه الواقعة وقطعن أيديهن لما رأينه ، ثم سمعن اعتراف امرأة العزيز التي كانت حينئذ مضيفتهن .

« وقال الملك اثبتوني به فاما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم » .

(يوسف ٥٠ - ٥٣)

ولكن ذلك لا يزيد الملك - وهو في عوز أشد العوز إلى الرجال - إلا حرصاً عليه ورغبة فيه وعزماً على اتخاذ قراره بإطلاقه واستخدامه .
« وقال الملك اثبتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه » وأدرك ذكاء قلبه ورجاحة عقله وأمانته وبعد نظره « قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » (٥٤) .

وكأنما عرض عليه مناصب الدولة وأدار مجه الحديث فيما هم مقبلون عليه ويتوقعونه من شئون الدولة ومشاكلها وفي أمور الناس وحاجات الناس « قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » وكان يوسف قد خبر ما صورنا من شئون البلاد ونظمها ، وطرائق عيشها وأساليب أهلها فيها . وذلك بحكم إقامته بها في خدمة العزيز مدبراً أمور بيته محتملاً ما يسند إليه من وظائف وأعباء . وكان في أثناء ذلك وهو القريب النازح يدرس ما يجري أمام عينيه فاحصاً متأملاً مستقصياً أمور البلاد العباد ، متعرفاً ما يتبعون من عادة مستمعاً إلى ما يروون من عيون الأخبار ومن تاريخهم وتاريخ ملوكهم وحكامهم ، وكانوا بالرواية والتاريخ مشغوفين . وقد أجاب الملك يوسف إلى ما طلب من منصب فكان له

ما أراد ، وخرج من السجن ليتولى في الدولة منصباً من أكبر مناصبها وأشدّها في ذلك الزمان خطراً .

« وكذلك مكثنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » . (يوسف ٥٦)

وكان القحط الذي نزل بمصر قد امتد إلى ما وراء الحدود فشمّل أرض كنعان في فلسطين ، واضطر يعقوب تحت وطأته أن يرسل بنيه إلى مصر مشترين مستطعمين . « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » .

كانوا قد ألقوه في غيابة الحب صبيّاً لم يتخذ من اللباس إلا ما يتخذ البدو من ثياب بسيطة لم يألّفوا سواها ، وهم اليوم يدخلون بعد نيف وعشرين عاماً على فتي في عنفوان الرجولة حليق العارضين إلا من لحية صغيرة قصيرة على الذقن ، وقد تزيّا بثياب المصريين الأنيقة من نقبة وقميص من كتان أبيض يتحلى عند الصدر بطراز عريض مختلف ألوانه ، واتخذ من فوق رأسه شعيراً مستعاراً أو غطاء من تلك الأغطية التي شاعت عند المصريين في تلك القرون . وأكبر الظن أنه حدثهم بغير لغتهم متخذاً في لهجته سميت الإمارة وسطوتها . ولم يكن للإخوة أن يتخيلوا أن هذا العزيز أخوهم وابن أبيهم ، فلقد ألقوه في غيابة الحب عاطلاً من المال قد تقطعت به الأسباب فلا سند له من أهل ولا مكان له من وطن . وأكبر الظن أن يوسف قد طفق يتحدث إليهم ويستمع منهم ويسأل عن أبيهم وأمهم وإخوتهم وهم لا يعون من وراء تلك الأحاديث شيئاً ، ولا يحسون إلا أنها مما يجري بين الغرباء حين يلتقون ، وكان مما حدثوه أن لهم من أبيهم أخاً أصغر لم يأت معهم لحرص من أبيهم عليه ، فتقدم إليهم في رؤيته . وقد كانت نشأت بينه وبينهم — بحكم ذلك اللقاء — مودة عبر عنها بفضل في إيفاء الكيل وبكرمهم برعايتهم وقراهم وإنزالهم منزلاً يجدون فيه الراحة والأمن ،

أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل . (٦٦)
 سبحان الله . أحد عشر فتى يخرجون على رواحهم متقاطرين ،
 لا يشك الناظر في وجوههم أنهم إخوة لأب واحد أجمعين ، تتشابه
 قسماهم من جبهة عريضة وأنف أقي وعين سوداء .
 لا شك يعجبون المشاهد إذا شهد ، ويشيرون الحاسد إذا حسد .
 « وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة
 وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا الله عليه توكلت وعليه
 فليتوكل المتوكلون » . (٦٧)

وخرج الفتية إلى مصر قاصدين ، وكان لابد من طاعة الأب
 فيما أوصى به

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من
 شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن
 أكثر الناس لا يعلمون » . (٦٨)

ثم أقبلوا على العزيز مستأذنين .
 « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال أنا أخوك فلا تبتس
 بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه
 ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون » .
 (٦٩ - ٧١)

وبشأ رجال يوسف المبالغة في قلد المسروق وقيمته — إمعاناً في
 إرهاب إخوته — فزعموا أن المسروق شيء أئمن وأخطر من السقاية ،
 وإنما هو من أمتعة الملك أو هو من ممتلكات الدولة الملكية « قالوا نفقد صواع
 الملك ولن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا
 لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » . (٧٣) هم لا يشكون وما ينبغي
 أن يشك العزيز في ذلك ، فقد كان تعرف بهم وتحدث إليهم وعرف
 من أمرهم كل شيء ، وعلم أنهم قوم مسالمون إنما أقبلوا يغيرون أهلهم بما

يكتالون منه ، ولكن ذلك كله فضلاً عن إنكارهم ودفاعهم لم يمنع من اتهامهم أولاً ثم تفتيشهم ثانياً .

« قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » . (٧٥ - ٧٦)

وكأننا بالإخوة ، وقد استخرجت السقاية من رحل السارق المزعوم قد نكسوا رؤوسهم حياء وخجلاً وحاولوا أن يقولوا شيئاً يعتذرون به .
« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون » . (٧٧)
لا شك أنهم شر مكاناً وقد طوعت لهم نفوسهم قتل أخيه أو إلقاءه في غيابة الجب ، ومع ذلك فلم يأن بعد لحسابهم الأوان .
على أنه لم يكن من سبيل إلى الشفاعة فيه أو التطوع باحتمال التهمة عنه .

« قالوا يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون » . (٧٨ ، ٧٩)

ويكون ذلك فاتحة الختام أو بداية النهاية من القصة ، إذ انتهى المطاف بيعقوب ونبيه إلى الاستقرار بمصر حيث أنزلوا أرض جسم أو جاسام كما قرئ اسمها في النصوص المصرية^(١) أو أرض جاسان كما ورد في التوراة ، ويكون استقرارهم هذا في تلك البقعة من وادي طميلات شرقي الدلتا فاتحة لقصة أطول وتاريخ أكبر ، تشعبت أحداثه وتقلب فصوله ونوشك أن نتعرض له بعد قليل .

ولقد كان هبوطهم كما قدمنا على عهد الهكسوس في مصر ، حيث بقيت لنا من آثار تلك الفترة جعلان عليها أسماء لطائفة من رؤساء الساميين كان منهم اسم « يعقوب ايل » وهو اسم يكاد يصعب في رأى أكثر المؤرخين ، إنكار ما شاغ بينهم من أنه إنما نقش تذكاراً لسبط إسحق ابن إبراهيم عليهم السلام ^(١) .

ونعود هنية إلى يوسف وإخوته .

« فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون » . (٨٠ - ٨٢)

ومع ذلك فلقد كان يعقوب يعلم بما في نفوس أبناء الضرائر من الحفيظة والحق ، وقد ظل الشك يعمل في نفسه مما يقولون .

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم » ^(٨٣) .

ولم يكن يعقوب - ككل أب لولد مفقود - على استعداد للتسليم بهلاك ابنه ولا لليأس من عودته ورؤيته .

« وتولى عنهم وقال يا أسنى على يوسف وايضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين : قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . (٨٤ - ٨٧)

ويعود الإخوة إلى مصر وقد أضر بهم القحط والحزن على ما نزل بهم

وبأيهم من محن ، فيلقون يوسف ولم يكن بالنسبة إليهم حتى اليوم سوى عزيز مصر .

« فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » (٨٨)
وكان الأوان قد آن للكشف عن شخصه وقد ارفضت عيناه — فيما ينخيل إلى — بالدمع لما وجد فيهم من ذلة وجهد وقد مسهم الضر حقاً وهم يسألونه الرحمة والصدقة ، وينخيل إلى أنه خاطبهم هذه المرة بالعبرية :
« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون .

قالوا إنا إنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد مَنَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » (٨٩ — ٩٠)

وكان بين الإخوة لقاء امترج فيه الفرح والخزى والبكاء ، وامترج فيه حسد مكتوم على ما حظى به من منصب عظيم ومكان رفيع ، ثم كان بينهم اعتراف وعتاب ثم عفو وغفران .

« قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . (٩١ — ٩٢) . ثم يكون السؤال عن الأب والإخبار عما آل إليه من العلة والأسى ، وما يجد وأهله من المشقة والجهد والإملاق ، ويكون القرار بكفالة الأسرة كلها ورعايتها فما كان ينبغي له أن يتمتع بما يتمتع به من يسر وترف وأهله مملقون فيقول :

« اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون » . (٩٣ — ٩٦)

ولم يعد من سبيل للإخوة إلى إخفاء جرمهم بعد انكشاف كل

شيء ، فلم يكن لهم إلا الاعتراف والندم وطلب الغفران .

« قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم . (٩٧ - ٩٨) ثم يكون حديث الفتية عن يوسف وعمما هو فيه من نعمة ومنزلة وسلطان وما قرر من استقدامهم إليه فتكون الرحلة التاريخية إلى مصر .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين » (يوسف ٩٩) ..

۴

موسی

بسم الله الرحمن الرحيم « طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون »

(القصص ١ - ٣)

دخل إسرائيل وبنوه مصر بمشيئة الله آمين ، حيث طابت لهم الإقامة في مصر كاسبين مستكثرين ، حتى صاروا كأنهم من أهلها وطائفة منهم كما يقول القرآن ، غير أن ما ركب فيهم من ميل إلى العزلة وكراهة الاختلاط قد حجب نفوسهم وولاءهم عن ذلك البلد الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

وقد روت التوراة ذلك في سفر الخروج (١ : ٧ - ١٤) قالت :

« وأما بنو إسرائيل فأنثروا وتوالدوا وكثروا كثيراً جداً وامتلات الأرض منهم ، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا ، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا ويصعدون من الأرض فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم ، فبنوا لفرعون مدينتي فيثوم ورعمسيس . ولكن بحسبما أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بني إسرائيل فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل ، كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفاً » .

ولا شك أن كاتب هذا الجزء من التوراة إنما أوغل في المبالغة وأغرق في التعصب حين أطلق على لسان فرعون أن بني إسرائيل شعب

أكثر وأعظم من المصريين ، فلو قد كان ذلك كذلك لما استطاعت قلة المصريين أن تسخر كثرتهم المزعومة . بل لقد شطح الخيال والوهم في تقدير عددهم كما أوزده سفر العدد فأبلغه حدًا من الإغراق في الوهم يلغى العقل والتفكير . إذ ذكر أن المحاربين منهم ممن تجاوزوا العشرين قد بلغوا في مطلع العام الثاني لخروجهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين (٦٠٣٥٥٠) فكيف كان عددهم في ذلك الحساب أجمعين .

« فكان جميع المعدودين من بني إسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين فصاعداً كل خارج للحرب في إسرائيل ، كان جميع المعدودين ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين » . (عدد ١ : ٤٥ - ٤٧)

فلا شك في أن مثل ذلك العدد من الشباب المحارب خلق أن يرفع مجموعهم إلى ما يجاوز المليونين بل الملايين الثلاثة ، وهو ما لا يستقيم مع ما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير ، ولا مع ما روى من عبورهم البحر في سويحات قصار .

ومهما يكن من شيء ، فلقد أقاموا في مصر منذ دعاهم يوسف حيث تمتعوا بالأمن والسلام « فأتمروا وتوالدوا وكثروا » ، وحيث كانوا - من غير شك وما زالوا كما عرفوا دائماً وبرغم تلونهم الظاهر بالمجتمع الذي يعيشون فيه - يعتزلون بأنفسهم ويلوذون بعصبيتهم بما ينفر منهم أهل البلاد ويحمل المجتمع المضيف على الشك فهم والحذر منهم . بل إنهم ليرحبون ويشجعون على إثارة ما يلقون من النفور والحذر تمكيناً لأنفسهم من الاعتزال والبعد عن الناس ، إذ بدأت تلك السياسة منذ اللحظات الأولى من هبوطهم مصر وذلك بنص التوراة :

« ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه : أضعوا وأخبر فرعون وأقول له إني أخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليّ ، والرجال رعاة غنم ، فإنهم كانوا أهل مواش وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم ، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ

صبا بنا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً لكي تسكنوا في أرض جاسان لأن كل راعي غنم رجس للمصريين» (تكوين ٤٦ : ٣١ - ٣٤) وطبعي أن يكونوا على ولاء لأنفسهم ومضالحهم بولائهم للهكسوس وملكهم الذي آواهم في مصر وأنزلهم أرض جاسان ، إذ مثلوا بين يديه مع يوسف وقالوا لفرعون جئنا لتتغرب في الأرض إذ ليس لغنم عبيدك مرعى ، لأن الجوع شديد في أرض كنعان ، فالآن ليسكن عبيدك في أرض جاسان . فكلّم فرعون يوسف قائلاً أبوك وإخوتك جاءوا إليك ، أرض مصر قدامك في أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك ، ليسكنوا في أرض جاسان ، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواش على التي لي . (تكوين ٤٧ : ٤ - ٦)

وما ندرى لعلهم قد كانوا حيث أقاموا شرقى الدلتا مع الهكسوس عوناً للهكسوس وحرباً على المصريين في حرب التحرير ، وهم من أحذق خلق الله على القلب والتلون وإثارة القلاقل واستغلال الأزمات ، إذ هب المصريون بقيادة أمراء طيبة فشنوا على المحتلين حرباً أضرمها عليهم سقنزع تاعاقن ، فما إن استشهد في القتال حتى خلفه على العرش والجهاد ولداه كاموسى ثم يوعح موسى (أحمس) .

لمحة من التاريخ

وكان قد سبق الحرب محاولات للتحرش بدأ بها أپوپی ملك الهكسوس ، إذ أرسل إلى سقنزع - فيما روت بردية سالييه - سفارة تحتج على أفراس النهر في بحيرته وما تثيره من أصوات مزعجة تزدود النوم عن ملك الهكسوس في هواره (١)

ولقد تجلت وطنية المصريين في تلك الحرب بما استطاع كل مصرى

أدائه من تقديم النفس والمال في سبيل التحرير ، حتى انعقد لواء النصر للملك « يوعح موسى » الذي دمر معاقل الهكسوس بعد معركة ضارية حول مياه باجدكو في مصر حيث كانوا يرتكزون في عاصمتهم هناك ، ثم تعقبهم إلى فلسطين حيث حاصروهم في « شارو حان » ثلاث سنين قبل أن يقضى عليهم قضاء لم يسمع بهم بعد ذلك من أحد ، ثم عاد لينشئ أسرة جديدة ويبدأ دولة جديدة وعصرًا جديدًا ومجددًا جديدًا . فكان رأس الأسرة الثامنة عشرة وطلبة الدولة الحديثة في تلخيش مصر .

على أنه احتلال الهكسوس وقد زال عن مصر لم يزل عنها دون أن تخرج منه بما كان لها في حضارتها وفي أهلها من أثر خطير . فقد عرف المصريون عنهم العجالات الحربية والخيل وأخذوا القسي المزودة والواناً من الأسلحة والسيوف . كذلك فقد اضطربت الروح الوطنية والزرعة الحربية في نفوس المصريين ، إذ وجدت البلاد نفسها منذ إجلائهم مضطرة إلى الإقامة على حمل السلاح وإشهار السيف . وكان لازماً عليها أن تستبقى سيفها مشهوراً منذ ذاك حفاظاً على حدودها أولاً وتأميناً لطرق التجارة والنقل ثانياً ، ثم ضماناً لموارد الثروة والمواد الغفل ثالثاً .

وكانت القبضة المصرية على ما أحرزت من أملاك لها في آسيا وأفريقية خليقة إن لانت أو تراخت أن تفقدها ما أحرزت من هذه الأملاك . وأنجبت مصر ملوكاً كانوا من أعظم القادة العسكريين والجنود المحاربين ، من أمثال تحتمس الأول وتحتمس الثالث وأمنحتب الثاني . بل عرف من الرعية قادة محاربون أبلوا في سبيل بلدهم أحسن البلاء من أمثال يوعح موسى ابن أبانا ويوعح موسى الكابي وأمنحتب ، إذ شهدت طيبة عاصمة مصر على عهد هذه الأسرة عهداً تطامنت لها فيه إمبراطورية واسعة النطاق مترامية الأطراف ، تمتد من أعالي الفرات في الشمال إلى جنادل النيل الرابعة في الجنوب ، حيث أسرع إليها الناس شعوباً وقبائل وحكاماً من أقطار الأرض وجزر البحر بالولاء والخضوع خوفاً وطمعاً ، وباتت طيبة

عاصمة الدنيا وأم القرى في ذلك الزمان ، حيث تدفقت على مصر كما تفجرت من أرضها ينابيع الثروة وشملت من أسباب الأمن والرفاهية والرخاء والحياة الناعمة ما وجد سبيله إلى الثقافة والفن ، وبات الملوك من جيرانها وفي يمينهم أن الذهب كالتراب كثرة ووفرة ، فهم يرسلون الرسائل ويبعثون البعث يطلبون بل يستجدون رضاء مصر أولاً ، وذهب مصر ثانياً ويتمنون على فرعونها أمنتب الثالث أن يرضى فيسمح يتزويجهم فتاة من مصر ولو لم ترتفع إلى طبقة الأمراء والنبلاء .

على أن هذه الحقبة من التاريخ قد شهدت طلائع القبائل العبرانية تدخل فلسطين ، حيث ورد فيما سجل تحتتمس الثالث من فتوحاته بالكرنك مواضع تدل أسماؤها على صبغة عبرانية تلقها من بعض القبائل والبطون ، منها على سبيل المثال يعقوب إيل ويوسف إيل^(١) ، وكذلك فقد ظهرت مذ ذاك طوائف من الناس أو قبائل تحمل اسم عابرو ونخابرو وأثارت من جدل المؤرخين في نسبتهم إلى العبرانيين ما لم ينته بعد إلى قرار ، ومع ذلك فقد غفل التاريخ عن بني إسرائيل في مصر يومئذ منذ هبوطهم بها فلم يذكر عنهم شيئاً ، وحسبنا عنهم أنهم أقاموا هناك « فأثمروا وتوالدوا » وأصبحوا جزءاً من رعية فرعون آمنين مع المصريين أو « طائفة منهم » كما وصفهم القرآن في أول سورة القصص .

وأكبر الظن أنهم عبدوا مع الهكسوس المعبود المصرى المعروف ست أو سوتخ ، إذ قدسه الهكسوس — كما قدسه المصريون — في صورة آسيوية أحياناً وسموه « بعل » .

ولقد بلغت مصر ما بلغت من سلطة راسخة وإمبراطورية باذخة وقد قر في إيمان الناس ما أعلن إليهم من أنها إنما حصلت بفضل آمون رب الأرباب ذى الرأى السديد . فبذل له الفراعين عن سخاء بل إسراف ما وسعهم البذل وكان كثيراً ، فشيدوا له المعابد ووهبوا له الهبات السابغة

حتى بلغ كهانه من الثروة والسلطان على النفوس والعقول بل على الملوك أصحاب السلطة ما أطمعهم في المزيد ، وأشعر فرعون ومن حوله بما لا بد منه من رد ذلك التيار الخفيف ، بل لقد كان ازدياد شأن أمون ورد الفضل إليه في الفتوح وامتداد سلطانه إليها أن أوحى مع فكرة الإله الواحد ، التي لم تكن غريبة عن أذهان المصريين على كل حال ، بفكرة الإله العالمى الذى يعبده الناس كافة فى مصر وغير مصر ، فكانت من ثم دعوة المنحطب الرابع إخناتون (شكل ٤) إلى دين التوحيد، إذ نادى بعبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الرازق القادر المدبر ، ورمز له بقرص الشمس آتون ، وصاغ له من ناصع الشعر أناشيد وترانيم تم عن أحاسيس عميقة ومشاعر صادقة تعدد آلاءه على العالمين .

ومع ذلك فقد كان عسيراً على الناس أن يتخلوا عما ألفوا من دين وجدوا آباءهم عليه عاكفين ، فكان أن اجتمعت على الملك معارضة الشعب وعداء الكهان الذين أفقدوا مكانتهم وأموالهم . وتذمر منه الجيش الرابض فى منف وهو يجمع غيظاً بما يهوى على سمعه من أنباء الإمبراطورية التى لم تلق من الملك الفيلسوف السادر إلا الإهمال ، وهو فى شغل بدينه عن ديناه ، فإذا بها تتداعى ثم تهادى إلى السقوط والزوال . وهم يذكرون أياماً مجيدة ودماء غالية بذلها أبائهم أيام بطل مصر الخالد تحتمس الثالث .

ولقد انتهى الأمر بحكم ما تردت فيه البلاد من الصراع والاضطراب من بعد موت إخناتون ، باحتضار الأسرة الثامنة عشرة وميل شمسها إلى مغيب ، وكادت مصر يوماً تفقد استقلالها فيبتلعها الحيشيون بعد ابتلاعهم أملاكها ، وذلك فى مؤامرة سفية انبعثت من غباء إحدى الأميرات من بيت إخناتون ، لولا أن تلقف العرش رجال صدقوا ما عاهدوا الوطن عليه وما بدلوا تبديلاً . فلقد كان قائد الجيش حورمحب يرقب الأمور ويوجهها عن كتب من موقعه فى منف ، إذ أعقب إخناتون ختناه سمنخ كارع وتوت عنخ آتون ، ومن بعدهما دقع آى - وكان



(شکل ۱)

شيخا - إلى الملك ريثا يستتب له الأمر ويتهيأ له ثم استوى على العرش .
وأقبل حورمحب ليقبل مصر من عثرتها وليردها إلى الأمن والنظام
والقانون ، ويطهرها مما تردت فيه من الفساد والرشوة واستغلال النفوذ ، وليرهب
من وراء حدودها عدوا يسعى بعد أن تحيف أملاكها إلى ابتلاعها بأسرها .
وإلى حورمحب تنسب مجموعة من القوانين الصارمة التي أصدرها ضد
المرتشين المستغلين ، ثم ودع الدنيا بدون أن يعهد بالعرش إلى أحد من
بنيه أو أولى قرباه ، فكان ممهداً لعهد من الاستقرار والقوة جديد ، وقيام
عصر من القواد العسكريين الذين استردوا لمصر هيبتها وأملاكها في أفريقيا
وآسيا كان على رأسهم رمسيس الأول ، فلم يلبث عاماً وبعض عام حتى ترك
العرش لولده سيتي الأول (شكل ٤) ثم حفيده رمسيس الثاني بن سيتي (شكل ٥) ،
وكانا من أعظم عواهل مصر بما أقاما من منشآت وأحرزا من انتصارات .
فقد دخلا في صراع عنيف من الحيثيين على أرض سوريا وفلسطين في
سبيل استرداد ما تحيفوا منها وتثبيت سلطانهما عليها ثم ختم ذلك الصراع
بعقد معاهدات الصلح والسلام الدائم بين العدوين المتحاربين رمسيس
الثاني المصري وخاتوسل الحيثي . وكان رمسيس يومئذ قد انتقل إلى
عاصمته الجديدة التي أنشأها عظيمة زاهرة شرقي الدلتا غير بعيد من
عاصمة الهكسوس القديمة ، لتكون في مكان واسط بين مملكته في مصر
وأملاكها في آسيا . وفيها استقبل المندوب الحيثي الذي أقبل يحمل طلب
الصلح حيث عقدت المعاهدة التي أبرمت بينهما عام واحد وعشرين من
حكمه ، ومع ذلك فقد أقامت العلاقات والاتصالات الودية بين
الدولتين حتى رأتا تدعيمهما بوشائج المصاهرة فتزوج رمسيس من بنت
ملك الحيثيين الذي أقبل يزفها إليه في العام الرابع والثلاثين .

على أن مصر قد طفقت تتعرض من بعد رمسيس الثاني لأخطار
ظلت تنوشها من كل مكان ، حيث كان عهد مرنبتاح بن رمسيس ممثلاً
لفترة من الفترات التي جنحت فيها إلى مبتدأ الانحدار من ذروة القوة

إلى هوة الضعف ، ومن عزة الامتداد إلى هوان الانكماش ، ثم انتهى
أمرها إلى انهيار في الداخل والخلل لإمبراطوريتها في الخارج ، حيث
تألبت عليها الشعوب في أقاليمها في الخارج وتألبت عليها من الليبيين وشعوب



(شكل •)

البحر المتوسط عناصرها هائلة عدمت المستقر الحصيب ، حيث تحركت الشعوب والأجناس في آسيا وأوروبا في موجات بشرية عاتية تدفع أمامها شعوباً تبحث عن مستقر دائم تعيش فيه ، فتتطلع نفوسها وتمتد عيونها إلى الوادى الحصيب من حول النيل .

وكذلك فقد ورث مرنبتاح مع العرش تركة مثقلة عن أب حكم سبعة وستين عاماً امتلأت بالحروب الطويلة المرهقة والنفقات الثقيلة الباهظة على عمائر كثيرة ومنشآت باذخة ، وكان مرنبتاح كذلك قد جاوز سن الشباب بل جاوز الكهولة حين ولى العرش من بعد أبيه الذى جاوز الثمانين ، فإذا بشيخ يخلف شيخاً ، وإذا مصر تتحول من الهجوم إلى الدفاع ومن التطلع إلى إمبراطوريتها وتوسيعها إلى الانشغال بالدفاع عن أراضيها وسلامتها . ومع ذلك فقد كان عهد مرنبتاح حركة لا تهدأ فيما كان من قمع ثورات البجاة والنوبيين في أقصى الجنوب وثورات شعوب آسيا من أملاك مصر في الشرق . وفيما كان من رد الليبيين عن حدود مصر في الغرب مرتين ، وقعت الأولى في العام الرابع من حكمه (١) ، وقعت الثانية في العام الخامس ، وكان الغزو الليبي الثانى من أخطر ما تعرضت له مصر من غارات ، إذ واجهت جموعاً هائلة من شعوب البحر المتوسط تحالفت مع الليبيين بقيادة ملكهم مرياي ، وكان مرياي هذا عازماً على إحراز النصر والاستقرار بمصر ، فصحب معه نساءه وبنيه . واصطدم الجيشان في معركة هائلة لم تدم أكثر من ساعات انتزع فيها المصريون الغلبة وأحرزوا النصر الأكبر ، فكأنما كانت عين جالوت القديمة .

ولم يكن مرنبتاح وهو يجاهد جهاد اليائس بأقل من أبيه شدة وسطوة ،

A.A. Youssef, Merenptah's fourth Year Text at Amada (١)

(in Annales du Service des Antiquités de l'Egypte), T. LVIII (1964),

p. 273 ff.

بل زاد عليه قسوة وعنفاً ، فلقد حفظ لنا في معبد عمداً بالذوبة من وثائق التاريخ ما يحدث أنه كان يعاقب الخارجين عليه فضلاً عن الصلب فوق الشجر بإحراق الجموع وقطع الأيدي واقتلاع العيون وصلب الآذان ، وأنه كان يبالغ في العذاب فينزل عقاب الحريق بالخوارج أمام ذويهم ، ويرسل ما اجتمع من الآذان والعيون فتعرض أكواماً في بلادهم إرهاباً وتخويفاً^(١) .

ولقد أيقن المصريون في أعقاب هذه المعركة أنهم قضوا على كل خطر يهددهم وضمنوا سلاماً لا يشوبه خوف ، وحق لهم أن يجوسوا خلال الديار في غير وجل وأن يجلس بعضهم إلى بعض يتحدثون ويسمرون ويتغنون بنشيد النصر الأكبر سعداء هانئين .

أما مرنيتاح — وكان أصلع بادناً — فقد قعدت به الشيخوخة والمرض في أعقاب ذلك قعوداً توقع معه الناس — منذ العام الثامن من حكمه — نهايته ، فكان أن جدوا مذكاً في إعداد قبره والاستعداد لحنازته ، ولكن العمر مع ذلك قد امتد به من بعد ذلك نيفاً وعامين ، حيث مات ودفن — من وادي الملوك بالأقصر في تابوته الجرانيتي بقبره الفسيح ، ثم قدر لحمايته من بعد ذلك خوفاً من اللصوص أن ينقل إلى قبر أمنحتب الثاني حيث أعر عليه عالم الآثار فكتور لوريه عام ١٨٩٨ من الميلاد .

ثم خلف من بعده ابنه سيتي مرنيتاح أو سيتي الثاني كما عرف عند المؤرخين ، فلم يجاوز حكمه أعواماً ستة استغرقتها الفوضى والاضطرابات إذ ورد على بعض كسر الفخار تاريخ توليه كما ثبت تاريخ موته الذي وقع في العام السادس من حكمه . وفي عهده تواترت الأنباء على قلتها بأن طيبة قد كانت تجتاز أياماً تملو بالفوضى وتمتلئ بالخلاقات . إذ روى أن رجلاً يقال له نفرحتب وكان ثاني اثنين من رؤساء العمال في



(شکل ۶)

الجبانة قد استبدل به آخر يسمى پانب ، وأن پانب هذا قد تعرض لحملة من اتهامات خطيرة أثارها عليه أخ لزميله نفرحتب يدعى أمون نخت ذكر فيها في لهجة عنيفة — على بردية بالمتحف البريطانى اليوم — أن پانب سرق لزخرف قبره أحجاراً من قبر الملك سبتى الثانى فى أثناء بنائه ، وأنه اختلس وأفسد أملاً كآ أخرى لذلك الملك ، بل زاد أمون نخت فآتهم پانب بأنه قتل نفرحتب برغم ما له عليه من فضل التربية والتعليم ليغتصب منصبه ويخلفه عليه ، وأنه بعد مقتل رئيس العمال هذا قد حاول رشوة الوزير بارع م ح ب ليعينه مكانه . ومهما يكن من شىء فإن ما ورد إلينا من هذه التهم وما ورد من أنباء غامضة عن حرب وقعت فى تلك السنين إنما يدل على ما كانت طيبة نخاسة والبلاد عامة تمر به — بما وصف مجازاً بالحرب — من فوضى عارمة واضطراب شديد . وقد روى أن نفرحتب شكّا إلى الوزير أمن موسى — ولعله كان سلفاً لبارع م ح ب — ما تعرض له من عدوان پانب فأنزل به العقاب ، عند ذلك فرع پانب إلى رجل يدعى موسى كان من غير شك ذا نفوذ عظيم فى الدولة يومئذ فعزل الوزير ، وما ندرى لعله قبض الملك باسم أمون موسى قبيل عهد سبتى الثانى أو فى أثناءه مديدة لم يقدر لها أن تطول ، وأنه صاحب القبر الذى عثر عليه باسمه هذا فى وادى الملوك .

أما سبتى الثانى فقد ودع الدنيا شاباً أو كهلاً كما يبدو من جثمانه المحنط الذى عثر عليه مع جثمان أبيه وسائر الفراعين فى قبر أمنيحتب الثانى ، ولم يكن له من أثر إلا معبد فى فناء الكرنك صغير ، ثم تردت مصر فى فترة من الفوضى وسفك الدماء ونفوذ الأجني ، حتى سقطت الأسرة التاسعة عشرة ولم ينقذها إلا رمسيس الثالث .

فرعون وبنى إسرائيل

وفى عهد رمسيس الثانى — على الأرجح والمشهور — ولد موسى . وذلك فى ظل الخوف والرعب الذى فرضه رمسيس على بنى إسرائيل ،

إذ كان قد تورط في سياسة من القتل وسفك الدماء كما قال تعالى في كتابه العزيز :

« إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم »
(القصص ٤)

وكان رمسيس الثاني حين تولى العرش عام ١٣٠٠ ق. م قد ألقى جالية من العبريين كبيرة سخرها فيما اختط لنفسه واختط له وزراؤه ومهندسوه من العمائر والمنشآت وكانت كثيرة هائلة لا تكاد تقع تحت حصر . وكان على كل حال فيما أثبتت وثائق التاريخ يسخر الأسرى ومن في حكمهم في إقامة ما يريد منها . فلقد حفظ لنا من النصوص عند معبد السبوع بالنوبة المصرية ما يتحدث فيه ستاو نائبه هناك عما كان من استخدامه أسرى من قبائل التمحبو (غربي مصر) في بناء هذا المعبد^(١) ، وعند معبديه بأبي سنبل ما يتحدث فيه « رمسيس عشاحب » عن ملكه من أنه أتى بأفواج العمال من أسرى سيفه - أو ذراعه - من كل البلاد ، وأنه ملأ بيوت الأرباب بأنباء رتنو^(٢) وكان المصريون يتخذون من لفظ رتنو هذا اسماً عاماً لسوريا وفلسطين . وقد تقدم ما ورد في سفر الخروج من استشعار فرعون لخطر بني إسرائيل فيما تحدث به إلى قومه :

« فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم ، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس » (١ : ١١) .

وقد عثر علماء الآثار منذ القرن الماضي على أطلال هاتين المدينتين وكشفا عن آثارهما وحققوا اسم كل منهما ، في التوراة ، فردوا الأولى إلى تصحيف في اسمها الأصيل برتوم بمعنى دار أتوم إله الشمس الأكبر الذي عبد في عين شمس في صورة الشمس المكتملة أو التامة ، وردوا

(١) Barsanti et Gauthier, Stèles Trouvées à Ouadi Es-Sebouâ

(Nubie) (in Ann. du Serv. XI (1911), p. 84.

Breasted, Ancient Records III, § 498.

(.٢)

الثانية كما هو ظاهر إلى اسم رمسيس ، وعثروا على آثار له تحمل اسمه هناك . وكان قد اتخذها وبنوه من بعده عاصمة لهم باسم بر رع عسي بمعنى دار رمسيس .

ولم يكن لرمسيس بداهة أن يفجأ الناس — على غير علة ولا سبب — بتلك السياسة عن مجرد مزاج مال به إليها وشهوة إلى الدم عصفت به في قوم أبرياء . وظاهر كذلك من نص القرآن أن فرعون لم يصدر في ذلك عن استبداد برأيه ولا انفرد بذلك بغير نصيح مستشاريه .

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين »

إذ شاركه في ذلك من عسى أن نسميه الحزب العسكري بزعامة مستشار ذكر باسم هامان . وهو اسم لا شك — إذا رد إلى أصله بغير تصحيف — من الأسماء المصرية المألوفة الشائعة في ذلك الزمان هو حورمين^(١) . وقد عرف بهذا الاسم رجل من عهد سيتي الأول وآخر من عهد ابنه رمسيس ، كان أولهما كاتب الملك وحامل الأختام والمشرف على حريم الملك ، وكان ثانيهما كاتب القصر^(٢) أو هو بلغتنا الحديثة كبير الأمناء أو رئيس الديوان الملكي ، بمعنى أن كلا من الرجلين قد كان من فرعون في منزلة قريبة تمكن من التوجيه والتأثير ، وقد كنا قدمنا كذلك ما كان لتلك الأسرة المالكة من صبغة عسكرية لا شك واضحة في حياة سيتي ورمسيس .

وأكبر الظن أن رمسيس إنما حارد بني إسرائيل بدخل أوغر صدره عليهم وثقة مفقودة افتقدتها عندهم في حروبه التي استغرقتهم مع الحيشيين خمسة عشر عاماً ، ولعله وجد فيهم ما لم يتعففوا — ولا هم يتعففون عنه اليوم — من خيانة وتجارة بولائهم للغالب في ظنهم من المتنازعين . ولعل فيما روت التواراة عن تعذيبهم اعترافاً بخوف فرعون منهم وشكه في ولائهم :

(١) Ranke, Die Agyptischen Personennamen I, S. 248.

(٢) سليم حسن : مصر القديمة الجزء السادس ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

« هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا ويصعدون من الأرض » (الخروج ١ : ١٠)

ولكن النقيصة التي أخذت على فرعون إنما كانت اندفاعه في العذاب وإسرافه في القتل للمذنب وغير المذنب على سواء .

هناك غير بعيد من بررعمسى ولد موسى ، حيث فزعت أمه إلى الله بما تخشى على ابنها من بطش فرعون . فيقول الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين »

(القصص ٧)

وفي حديثه إلى نبيه يقول :

« إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقلديه في التابوت فاقلديه في اليم فليلقه اليم بالساحل » . (طه ٢٩)

واليم في اللغة العربية البحر أو النهر ، وهو كذلك في اللغة المصرية القديمة ، إذ اليم لفظة سامية عرفت في المصرية منذ الأسرة الثامنة عشرة حول القرن السادس عشر من قبل مولد المسيح ؛ وكان المصريون يطلقون على البحر والنهر وما اتسع من لج الماء لفظ اليم ، ومنه جاء اسم منخفض الفيوم بعد إضافة فاء التعريف في المصرية إليه .

على أن الذي يستوقف النظر هنا أن اللفظ ورد في القرآن ثمان مرات لم يذكر في أحدها في غير ما يخص مصر ليس غير ، حيث ذكر بمفهوم النيل ثلاثاً وأطلق على البحر الذي غرق فيه فرعون خمساً فكأنما يشير القرآن إلى موضع معلوم كما يدعو أهله باسمه المعلوم .

أدركت أم موسى أن ليس إلى بقاء ابنها معها من سبيل وإلا فهو لا محالة مقتول ، فلتدفعه إذن خفية إلى من يكفله ويتولاه وإلى من يمنحه من الحب وكريم الرعاية ما يعوضه عن الأبوين في غير غمز في نسبه

ولا وضع من شأنه ، وقد عرفت حب المصريين للولد وحبهم على الطفل واستكثارهم للبنين ، وكان المصريون منذ أقدم العصور كذلك ومازالوا كذلك . فلقد حفظ من تراثهم الأدبي ما يحض على التبكير بالزواج والإنجاب وكانت قلة النسل في المجتمع المصري القديم من النكبات والمحن التي يشكو منها الأدباء وأهل الحكمة فيه . شكاهم ذلك أيهوور في عصر الفترة الأولى وتحدث آني عن الإنجاب ، وتحدث الكتاب في رسائلهم بعضهم لبعض ، إذ كان عقم الرجل وعجزه عن الإنجاب وصمة تخرجه عن رجولته وعاراً يرمى به ومذلة يعير بها ، وما كان ليغنى عن الرجل ماله الوفور إن لم يكن له ولد ، وما كان ينبغي ابنت أن يخلو من البنين إذ يقول قائلهم : « وأما الذي ليس له ولد فليتخذ عوضاً من اليتامى يربيه » (١) ومما أثر عن رمسيس الثاني أنه كان له ما يزيد على مائة من البنين وستين من البنات كانوا قرة عينه و « أحباءه » يصورهم في معابده فخراً واعتزازاً . لم يكن لأم موسى إلى أن تعيش مع ابنها من سبيل ، ومع ذلك فكيف تدفع به إلى من يرعاه وهي حريصة على أن تخفى عن الناس نسبه إلى بني إسرائيل . إذن فلتلق به بعيداً عن الحي الذي تعيش فيه ، حيث يلتقطه من يأخذه ويرعاه ، وما كان لابنها أن يضيع في شعب تلك شيمته وهذه خصاله . ومع ذلك فكيف لها مع الخوف والرعب أن ترى وهي تحمله إلى غير حياء دون أن تثير الريب والشكوك ، فلتقذفه إذن في النيل ولتطمئن عليه نفساً من النيل وقد علمت من أساطير المصريين أن تابوت أوسير قد ألقى في اليم فألقاه اليم بالساحل بعيداً دون أن يصيبه من اليم مكروه . « وقالت لأختها قصيه فبصرته به عن جنب وهم لا يشعرون » (القصص ١١)

(القصص ٨)

« فالتقطه آل فرعون »

(١) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة ص ١٢ .

والذى لا شك فيه كما سوف نفصل فى غير هذا الموضع أن موسى عليه السلام قد ولد فى بر رعمسى عاصمة رمسيس الجديدة التى انتقل إليها ، وأن مولده فى أرجح الظن قد وقع بعد العام العشرين من حكمه حين استقر بها فى أعقاب حروبه الطويلة .

وهناك يتعرض الطفل للخطر الذى كانت تفرق منه وتخشاه ، فقد أرسلت ابنتها لتعلم من عسى أن يلتقطه والبيت الذى ينزل فيه والأسرة التى تربيته . ولكنه يقع بين يدى عدوها وعدوه الذى حرصت على أن تباعد بينه وبين ابنتها ، ورضيت فى سبيل استنقاذه منه أن يبتعد عنها إلى حين .

ولكن لله حكمة هو مبدئها وأمرأ هو بالغه . فيحميه ويضمن له الحياة ويكفل له التربية الكريمة الناعمة والتعليم الناضج الذى يؤهله لقيادة شعب تعوزه القيادة ، ويؤهله لتعليم أمة أعماها الجهل لحمل رسالة التوحيد . يحميه بالحرب الذى يطغى على كوامن الشرور وغوائل الأحقاد .

« وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني » (طه ٣٩)

« وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقبلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » (القصص ٩)

ويحمل الطفل اسماً مصرياً شاع فى مصر فى تلك الأيام هو «موسى» وهو لفظ مشتق من مصدر الولادة بمعنى الولد أو الوليد ، كان يطلق على المصريين أحياناً مجرداً بهذه الصورة ، أو مقروناً بأسماء آلهتهم فى أسماء مركبة مثل رع موسى وبتاح موسى وتحوت موسى وأمون موسى ويوعح موسى بمعنى وليد رع ووليد بتاح ووليد تحوت ووليد أمون ووليد القمر . وغير بعيد أن يكون موسى عليه السلام قد سمي بذلك الاسم المجرد الذى ورد وعرف لبعض من عاش أيام الأسرة التاسعة عشرة ، أو لعله سمي باسم مركب مع أحد آلهة مصر ثم أسقط اسم الإله بعد ذلك . ولقد أجمع علماء المصريات على رد ذلك التفسير الذى قدمناه وخالفوا به ما ورد فى التوراة من أن ابنة فرعون دعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته

من الماء ، حيث رد كاتب التوراة اللفظ إلى اسم المفعول من الفعل العبرى « مشه » بمعنى المنتشل أو المستنقذ ، وإن رأى آخرون فيه اسم الفاعل بمعنى المنقذ أو المحرر ، كأن الذين أسموه كانوا يعلمون ما سوف يصير إليه ذلك الطفل اللقيط . ومهما يكن من شيء ، فالذى لاشك فيه ولم يشك فيه كاتب التوراة أن امرأة فرعون إنما كانت مصرية تتكلم المصرية وتفكر بها ، وما كان لها أن تتحدث في حياتها في وطنها حتى تتخذ للطفل - مع كراهة^(١) إشاعة للعبريين يومئذ - اسماً عبرياً . ولذلك فقد رأى مؤرخ اليهود يوسف أن يرد اللفظ إلى أصل مصرى واشتقاق مصرى مع تقيده بما ورد في التوراة من حيث ارتباط الاسم بما كان من التقاط من الماء ، فقال إن المصريين يسمون الماء مو ويقولون للذى يستنقذ من الماء أوسيس . غير أن حرص يوسف على تفسير يكون مصداقاً لما جاء في التوراة قد حمّله ، متعمداً ، على إغفال معنى لفظ أوسيس المصحوف عن لفظ حسي المصرى ، وهو أصلاً حتى زمان موسى في الأسرة التاسعة عشرة بمعنى الحميد ، ثم أصبح يطلق منذ الأسرة الثلاثين على الموتى من الغرقى المنتشلين من النيل للدفن ، وإلى ذلك أشار كليمنت الإسكندري من بعده ، فكأنه بذلك قد اتخذ لفظاً بمعنى متأخر عن عصر موسى وطبقه تطبيقاً غير دقيق ولا سليم^(١) .

ومع هذا كله فلم يكن اسم موسى بالاسم الوحيد الذى أخذته العبريون ودخل حياتهم من أعلام الأسماء ، بل لقد حملوا من الأسماء المصرية ما سار فيهم مسيرة التهويد التى نخص اليهود أنفسهم بها دون سواهم من الناس إذ شاع بينهم اسم فنحاص أو پنحاس وحفنى ويوتى إيل (فوطيثيل) بل شاعت بينهم كذلك أسماء مريم وسوزان .

٧
J. Cerny, Greek Etymology of the Name of Mosis (in (١)
Annales du Service des Antiquités de l'Egypte), T. XLI (1942)
p. 349 ff.

ومهما يكن من شيء ، فلقد شاء الله لنبيه عليه السلام أن ينشأ في آل فرعون .

« إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكلفه » (طه ٤٠)
 « وحرّمتنا عليه المراضع من قبل » فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن لتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . (القصص ١٢-١٣)

المراضع في مصر

ولولا كلمة سبقت من ربك لرأي موسى بين من دل القرآن على وجودهن في قصر فرعون من المرضعات والمربيات الحاضنات . وكان الفراعنة والأثرياء من أهل مصر كما شهدت وثائق التاريخ منذ الدولة القديمة يتخذون المرضعات والحاضنات المربيات . بل لقد اتخذ أحد الأثرياء من الدولة الوسطى للثلاثة من بنيه ثلاثاً من المرضعات متعاقبات . وكان للمراضع في أسرة الرضيع منزلة تكاد ترتفع إلى منازل الأمهات الوالدات ، ومن مراضع الملوك من بلغن المنزلة الرفيعة السامية في القصر . فلقد تزوج تحتمس الثالث ابنة مرضعته فبلغت مصاف الملكات ، وبلغ أي زوج مرضع نفرتيتي إلى أرفع المناصب في الدولة ثم آل العرش إليه من بعد توت عنخ آمون . وكانت الأراضى والضياح توقف على المرضعة التي تعرف في المصرية باسم منعة ؛ وهو الاسم الذي انحدر إلينا علماً على بعض البقاع مصحوفاً في لفظ منية والمنيا ، وكان للمرضعة أو الحاضنة من غير شك نصيبها في تهذيب الطفل وتربيته فيما عبر عنه القرآن الكريم بالنصح في قول تعالى : « وهم له ناصحون » .

ودخلت أم موسى الإسرائيلية قصر فرعون مرضعة لولدهم إبراهيم ، ولعل في ذلك ما يدل على أن حال بني إسرائيل في مصر لم يكن شراً كله ولا نكراً كله إن أبدوا استعداداً للعيش في المجتمع والتعاون بين بنيه . وقد

كانوا كما قال تعالى: « طائفة منهم » . ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة التي يتعامل معها الناس أو ينفر منها الملوك ؛ بل لقد كان ساقى مرنبتاح رجلاً يحمل اسماً لا شك في صبغته العبرية هو بن عزيز . وقد روت التوراة من أمر موسى والتقاطه ما يدل على مكان بنى إسرائيل عامة من المصريين وتسامح المصريين معهم : « فترلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر ، فرأت السفط بين الحلفاء ، فأرسلت أمها وأخذته ، ولما فتحت رأت الولد وإذا هو صبي يبكى ، فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين ، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد . فقالت لها ابنة فرعون اذهبي فذهبت ودعت أم الولد ، فقالت لها ابنة فرعون ، اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرتك ، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ، ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء » .

(خروج ٢ : ٥ - ١٠)

فإذا انتهت أشهر الرضاع وطور الطفولة انتقل الصبي إلى طور التعليم والتثقيف . ولا شك أن موسى قد تلقى من العلم ما كان يتلقى المصريون من أبناء الملوك والأشراف في ذلك الأوان ، فتعلم القراءة والكتابة والحساب ، ونسخ الصحائف على البردى بالهبر وغليفية والهبرطية واجتهد في مشقتها وتحبيرها وتحسينها ، وتعلم شيئاً من الفلك والجغرافيا وأطرافاً من التاريخ ، ثم قرأ من قصص المصريين وآدابهم وحكمهم شيئاً كثيراً . فقرأ ونسخ تعاليم بتاح حتب وكاجمى وحرددف ونصائح خيتي إلى ابنة مريكارع ، وحفظ من أناشيد المصريين في الشمس والنيل ما قدح قريحته وأخصب خياله ، وقرأ مناظرات الكتاب وما كانوا يديرون بينهم من جدل ؛ فكان أن حصل من هذا وذاك ما مكن له مناهج من التفكير ومن تأويل الأحاديث .

والذى لا شك فيه أن موسى كان مصرياً بفكره ولسانه إن لم يكن كذلك بقلبه وولائه ، ولا شك أن أمه - وهو في حجرها ترضعه وتربيته - قد علمته شيئاً من العبرية فنطق بها وتكلم بعباراتها ثم ازداد علماً بها حين بلغ أشده واختلط بينى جلده من العبريين فصار لهم عوناً وملاذاً بحكم عقله وتربيته أولاً ، وبحكم صلته بالقصر واتصاله بعلية المصريين ثانياً ، فكان يتشيع للعبريين ويحميهم مما عسى أن يتزل بهم من الشر والمكروه ، وكانوا قد بدءوا يتغلغلون في المجتمع المصرى ويتسربون إلى مناصبه كما قدمنا أواخر حكم رمسيس الثانى وأوائل حكم مرنبتاح .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

طائفة ذليلة مستضعفة كانت في حاجة إلى زعيم .

وأمة كبرى تحتوى تلك الطائفة فهي لا تمكنها من ذلك الزعيم . ولا تفتح أبواب المناصب لعامة الشعب ولا تفتح منزلة لغير المستعلين . فلما تأذن رب العزة لموسى أتاح له العلم في قصر فرعون من دون العالمين . ومهما يكن من شيء ، فلسنا نعرف من حياة موسى منذ مولده حتى صدر شبابه شيئاً ، وأكبر الظن أنه تولى منصباً وتبوأ مكانة في دولة فرعون حيث بدأ كما بدأ أترابه يومئذ كاتباً . وكانت وظيفة الكاتب في مصر مدخلا لأرفع المناصب وأسمى الدرجات ، وكان المصريون يحضون أبناءهم على ولاية تلك الوظيفة لما ينتظرهم فيها من الترقى ولين الحياة والسلطان . وغير بعيد أن يكون التحقق مع من التحقق من أمراء البيت المالك بالجيش (١) . ولقد حدثنا مؤرخ اليهود يوسف على غير سند من التاريخ ولا تأييد من التوراة أن موسى تولى قيادة الجيش ؛ ولكنه زاد في قصة لا يفتنى زيفها ، أنه إنما تولى تلك القيادة بعد رجاء من الملك والأميرة التى تبنته ؛ وأن ذلك

Josephus, Book II, chapter XI; see W. Whiston, The Life (١) and Works of Flavius Josephus (Philadelphia 1957), p. 77 f.

إنما وقع في أعقاب غارة^(١) شنها أهل النوبة العليا^(٢) على مصر فأنزالوا بالمصريين هزيمة نكراء فولوا منهم الأدبار ، حيث تعقبهم النوبيون إلى منف بل إلى ساحل البحر ، هنالك استلهم المصريون الوحي فأوحى إليهم باستخدام موسى الذي قبل القيادة سعيداً منشرح الصدر ، كما سعد بذلك كهان المصريين والإسرائيليين أجمعين . فأما كهان المصريين فقد ظنوا أنهم بذلك إنما يتخلصون من موسى ومن المهاجمين في وقت واحد ، وأما الإسرائيليون فقد ظنوا أنهم يهربون من المصريين بقيادته . ومضى يوسف فروى أنه تمكن من صد العدو بشجاعته وحسن تدبيره ، إذ تجنب النيل وسار إليهم براً عبر أرض غاصة بالثعابين الطيارة ، فعبرها بفضل ما حمل من أعداد من طائر الإيبيس وهو أعدى أعداء الثعابين ، ثم أهوى موسى على النوبيين فقضى عليهم وعلى آلهم في مصر ، وهناك رآته بنت الملك النوبي فأحبته وأرسلت إليه تعرض عليه الزواج بها فقبل على أن تسلمه المدينة ففعلت وفعل .

على أن ما نزل بني إسرائيل من العذاب وقتل البنين قد خفت حدته وانحسرت سORTE أواخر حكم رمسيس وحكم مرنبتاح كله فما يبدو . وآية ذلك ما روى من اقتتال إسرائيل مع مصرى من بعد مصرى ، وما بدا من إلحاحه في الشجار واللجاجة فيه والتهالك عليه . وظاهر أن بني إسرائيل يومئذ قد استمرءوا شيئاً من الراحة والأمن وأحسوا بشيء من القوة فتحولوا إلى مزيد من الإقلاق والشغب ومزيد من الإغراق في الطائفية والانقسام ، وأكبر الظن أنهم ارتدوا إلى ديدنهم من محاولة اقتناص الفرص والاستفادة

(١) يخطئ الكتاب المحدثون إذ يخلطون بين أثيوبيا بمفهومها الحديث وأثيوبيا كما وردت في مصنفات الأقدمين من كتاب الإغريق فيترجمونها كذلك بالحبشة .. إذ لا ينصرف اسم أثيوبيا القديم إلا إلى بلاد النوبة العليا وكانت تعرف عند المصريين الأقدمين باسم كاش .

من مصاعب مصر الخارجية والتحرر ما استطاعوا مما فرض عليهم من ربة مصر التي اشتدت منذ عهد رمسيس . وكانت السنون الخمس الأولى من حكم مرنپتاح غاصة بالحرب والكفاح كما قدمنا .

أما موسى فقد بلغ من تشيعه لبني جنسه وانتصاره لهم أن تورط في واقعة انتهت به إلى الخروج من مصر وفراره منها ، وذلك فيما ذكره الله تعالى في قوله من سورة القصص :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين »

فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . (١٤ - ١٩)

وقع ذلك وقد بلغ موسى أشده واستوى ببلوغه الأربعين ، والله تعالى يقدر للرجل أنه يستوى عقلاً وحكماً ببلوغ الأربعين ، إذ يبلغ أشده باكتمال قوه الجسم في نحو الثلاثين ، وقد ذكر عن يوسف أنه بلغ أشده حين راودته امرأة العزيز عن نفسه وزاد عن موسى أنه بلغ أشده واستوى فكان الاستواء في تلك الآية قد وقع موقع بلوغ الأربعين في قوله تعالى من سورة الأحقاف :

« ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب

أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين » (آية ١٥)
 فإذا صبح ما قدرنا آنفاً من تاريخ مقارب لمولد موسى فإنه يكون
 قد جاوز الأربعين عند وفاة رمسيس في العام السابع والستين من حكمه
 ويكون مرئيتاح الذي شارك أباه الحكم وقد بلغ من الكبر عتياً — قد تولى
 السلطة الفاعلة في ذلك الأوان . « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها »
 وما ندرى ماذا عسى أن تكون الغفلة التي أخذت أهل العاصمة إذ
 ذاك . وقد ذكر المفسرون على غير يقين أن موسى — كما يقول النسفي —

« دخل ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعني انتصاف النهار وقيل
 لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على تغفل ؟ »
 ومع ذلك فظاهر من قوله « أصبح في المدينة خائفاً يترقب » أنه كان مقيماً
 فيها فلم يدخلها على تغفل ، ولعل المقصود من دخول المدينة أنه دخل جزءاً
 منها أوحياً فيها ، وذلك كقول القائل من أهل القاهرة إنه نازل إلى البلد
 وهو يقصد قلبها أو حياها التجاري . كذلك فما أظن أن تخلو العاصمة من
 الناس وقت القائلة ولأما بين العشاءين وقد وجد فيها رجلين يقتتلان على
 أمر لهما . وأكبر الظن أن المقصود بأهل المدينة كبارها وأصحاب الحل
 والعقد والسلطان فيها — أولئك يستطيعون حساب موسى والقبض عليه
 وإنزال العقاب — إن شاءوا — به ، وقد بدا أن مقتل المصري قد ذاع في
 الناس صباح اليوم التالي وأن موسى إنما أصبح خائفاً يترقب فعل الشرطة
 والحاكمين عن أمر مرئيتاح .

وما ندرى لعل الغفلة التي أخذت الناس وصرفتهم حيناً عن فعلة
 موسى إنما كان ما شغلهم من وفاة رمسيس من حداد عليه وما أخذوا
 أنفسهم به من إعداده للدفن بالتحنيط والدعاء ، وكان ذلك يشغل
 الكثرة من الناس ويستغرقهم أياماً تبلغ السبعين . ومهما يكن من شيء
 فقد انتصر موسى للإسرائيليين الذي ألفاه يقاتل مصرياً روى النسفي أن

اسمه فاتون ، ولا أدري كيف استقام لمفسري الإسلام هذا الاسم الذى تدل صبيغته المصرية الصحيحة على سند فى الرواية والتواتر موصول ، ذلك أنه اسم مصرى خالص ، وهو مؤلف من اسم الشمس آتون مع فاء التعريف ، ولن يغيب عن القارئ ما بينه وبين اسم أخناتون من شبه وثيق .

على أن موسى بانتصاره للإسرائيلى قد تورط فى قتل المصرى عن غير عمد ، ولكنه مع ذلك عاد فأوشك تارة أخرى أن يتورط فى خلاف جديد بين مصرى آخر وبين ذلك الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس ويستصرخه اليوم ، ولم يجد موسى بداً من وصفه بأنه « غوى مبین » .

هنالك شاع الخبر وأنبئت السلطات المصرية التى ارتاعت كما ارتاع الناس لما ارتكب موسى من قتل رجل والشروع فى قتل آخر ، وربما ارتاعت لما أظهر من عصبية توشك أن تثير الفتنة وتندب بشر مستطير ، فكان أن قر الرأى على محاكمته بما ارتكب والقصاص منه بما جنت يده . وإن كان موسى قد رأى فى ذلك ظلماً صارخاً وافتتاتاً عنيفاً أن يطلب بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه ، أو أن يتهم بعصبيته وعبقريته لم يقصد إلى إثارتها ، ولكن الذى لا شك فيه أنه قتل وأن الظواهر وما وقع منه فى اليوم التالى لا تقف إلى جانبه ، ولا تبرئه أو تشفع له فى أى محاكمة يقدم إليها أو تحقيق يتعرض له . ولن يجد فى مصر يومئذ من يحميه أو يحول بينه وبين القصاص . ومع ذلك فقد كان المصريون أحرص الناس على عدالة وأشدهم استمساكاً بحق ، وحسبهم فى ذلك أنهم جعلوا للعدالة ربة سميت ماعت ، وأنهم كانوا يؤمنون بالمحاكمة إيماناً رسخ فى مجتمعاتهم وعقيدتهم حتى آمنوا بالحساب والمحاكمة فى الآخرة بين يدى رب الموتى أوزيريس على رأس قضاة عدول يبلغون اثنين وأربعين قاضياً ، حيث يتاح للمرء الخطاب والدفاع عن نفسه وإبرائها من الإثم ؛ ثم يوزن قلبه على يد رب الحكمة لتجزى كل نفس ما عملت ، فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وكان الملوك يحبون العدل

ويجبون الانتساب إليه إذ تسمى رمسيس بلقب حبيب الحق كما تسمى
مرنپتاح بلقب الراضى بالحق .

وكان المصريون قد أسسوا المحاكم وعينوا منذ مطالع تاريخهم في
الدولة القديمة القضاة الذين كانوا يتخذون من رمز العدل حلية يلبسونها في
أعناقهم ، ويحفظون الأحكام مكتوبة في الأضابير . ولم تكن الجريمة
مهما بلغت وفيمن وقعت - ولو على الملك - ليصدر فيها حكم أو قرار
بغير تحقيق دقيق، وحكم جهد الطاقة سليم . ومن أنباء المحاكمات أن الريب
والشكوك قد كانت حومت حول الملكة إيميتس زوجة عاهل الأسرة
السادسة بيبى الأول ، فلم يشأ أخذها بما اتهمت به بغير تحقيق عادل
يجرى طى الكتمان ، فعهد بذلك إلى وزيره أونى الذى صدع بما
أمر وقام به خير قيام ، وذلك مع حفاظه على السرية ، إذ روى هو لنا
أنباء التحقيق دون رواية الموضوع ، كما وصلت لنا محاكمة المتآمرين على
حياة رمسيس الثالث عاهل الأسرة العشرين فإذا هى مثال من أمثلة
الحياة الحق والعدل الدقيق ، إذ أصدر الملك وهو على فراش الموت مرسوماً
بتشكيل المحكمة وأوصى أعضائها بالعناية حذراً أن ينزل بغير مذنب
قصاص جائر . وكذلك جرت المحاكمات التى مثل بين يديها لصوص
القبور من عهد رمسيس التاسع - رغم فساد العصر يومئذ وفساد الضمائر
والدم - من حيث الدقة فى استجواب اللصوص وسماع الشهود .

ومهما يكن من شئ ، فقد تحقق موسى أنه مطلوب بدم القتل
وأدرك ألا مظنة فى القصاص ، حيث أقبل عليه مصداق ذلك على
لسان بعض المخلصين من المتصلين بولى الأمر :
« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملائكة يأتمرون
بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين »

(القصص ٢٠)

ولم يكن لموسى من مناص إلا أن يهرب من مصر حيث لا تناله

هراوات الشرطة من رجال المازوى الأشداء أو تصل إليه أيدي السلطان، وكانت في مصر شرطة منظمة يجند رجالها من قبائل البجاة في أقصى جنوب مصر ويستطيعون الإتيان به .

« فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير »
(القصص ٢١ - ٢٣)

الفرار

خرج موسى من مصر هارباً حيث ولى وجهه قبل المشرق إلى المخرج من مصر والمدخل الطبيعي إليها . خرج إلى مدين عن طريق سيناء . وقد أقبل على بئر مدين حيث ازدحم الناس بأغنامهم يسقون . ونظر موسى فإذا فتاتان قد تنحتا عن الناس رقة وضعفاً أن تجاهدا في الزحام ، وقد طفقتا تذودان ما لهما من أغنام أن تختلطا بأغنام المتدافعين المتزاحمين . وتروق الفتاتان موسى وتأخذاه الرحمة بهما ، بل لعله أعجب بإحداهما حيث تقدم إليهما متحدثاً مستفسراً ، فإذا هما فتاتان لشيخ كبير لا ولد له ، ولا هو يستطيع الخروج لسنه أو استئجار رجل يرعى غنمه لعسره ، وأنهما - من غير شك - إنما خرجتا إذن تحت وطأة الحاجة والعوز والاضطرار . لذلك فقد أخذته الشهامة ودفعته الرحمة إلى بذل العون لهما .

« فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » .
(القصص ٢٤)

وتعود الفتاتان فتحدثان أباهما بما وقع لهما منذ قليل وقد عادتتا هذه المرة مسرعتين . وظاهر أن إحداهما وقد كانت ألحن حجة وأبلغ مقالة ،

قد أفاضت في وصف ذلك الغريب الساغب الذي دفعته النخوة وحرصته الشهامة دون سائر الناس على السقيا لهما ، حتى أغرت أباها بالإرسال إليه داعياً إلى طعام وداعياً إلى قسط من راحة بعد وعشاء السفر وسغبه . وأكبر الظن أن الأب المأخوذ بمقالتها لم يجد إلا أن يرسلها في طلبه وهي أكثرهما حماسة وحرصاً على دعوته .

« فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن ألى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . (القصص ٢٥)

الحمد لله ، فقد أتاه ما هو إليه من خير فقير ، وجنى جزاء ما قدمت يداه للفتاتين من معروف ، ثم أتاه البشير أنه هنا في مدين ناج من بطش فرعون وملئه فلن تصل إليه أيديهم وأن النفوذ المصري قد انحسر عن تلك البقاع .

وقد جلس موسى إلى مضيفه يتحدث إليه ويروي قصته ، ولكن الفتاة أدركت أن الضيف بعد أن طعم وأنس إلى أبيها قد أوشك أن يتجم زيارته وينصرف لشأنه ، وقد وجدت في نفسها ميلاً إلى بقائه بل استبقائه ، فكان أن اهتمت إلى أمر عرضته على أبيها وتقدمت إليه فيه .

« قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

(القصص ٢٦)

وأدرك الأب بثاقب فكره ما قد كان يدور في خلد ابنته وما كان يشور في نفسها من المشاعر والأحاسيس ، وأنها مالت إلى ذلك الرجل العبري المصري الغريب الذي أقبل من مصر طريداً شريداً . « قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين » .

(القصص ٢٧)

ولعل الرجل قد رأى من موسى لطفة على وطنه وحنيناً إليه فلم يشأ إلا أن يرفق في الطلب ويرفق في الإيحاء بالاستزادة . أما موسى فلم يكن لديه إلى غير القبول من سبيل .

« قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل » . (القصص ٢٨)

ولم يكن لموسى من بلد يعرفه ولا وطن يهفو إليه ويتطلع إلى رؤيته بعد ذلك المنفى الذى فرض ، أو قدر عليه سوى مسقط رأسه فى مصر . وكأنى به وقد كان يستعجل الأيام كي يعود إلى ذلك البلد الذى ولد فيه ونشأ فى ربوعه وتنسم هواءه وسعد به ، وهو لذلك لم يقطع على نفسه أطول الأجلين حين العهد مع حميه فأعطى الأمل وخص نفسه بالخيار ، أو ترك لها على هواها الخيار .

وأقام موسى فى مدين مع زوجه عاماً بعد عام ، حتى أتمهن ثمانى حجج ، ثم زادهما عشراً ، فما زالت جريمته ماثلة لعينيه وخوفه من مرئيتاح يراود فؤاده . فتقول التوراة :

« وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات »

(خروج ٢ : ٢٩)

مات مرئيتاح فى مصر وانبعث الأمل بالعودة إليها فى صدره ، وخلفه على العرش ابنه الشاب سبى مرئيتاح ، ولعل فيه أملاً يطمع فيه وسماحة ترتجى ، وقد راود بنى إسرائيل الأمل فيه كذلك إذ تقول التوراة :

« وتهد بنو إسرائيل من العبودية »

(خروج ٢ : ٢٩)

إذنه المعاد إذن إلى مصر ، وسيكون فيه الميعاد مع الله .

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلى أتيكم منها بنخب أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة

المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين .

(القصص ٢٩ - ٣٠)

« وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجِد على النار هدى . فلما أتاها نوذى يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . »

(طه ٩ - ١٦)

هناك فى ذلك الموقف المشهود الذى وقفه موسى فى تلك البقعة المباركة من سيناء عهد إليه ربه برسالته إلى فرعون وملئه :

« وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولىّ فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يديك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . » (طه ١٧ - ٢٤)

« وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولتىّ مدبراً ولم يُعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين . اسلك يديك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين . »

(القصص ٣١ - ٣٢)

ولقد أحس موسى حيثئذ بثقل العبء الذى وقع على كاهله . وقد كان وهو عائد إلى وطنه يقدر الأمن بعد الخوف والقرار بعد الفرار ، وقد كان حريصاً على ألا يثير عليه السلطان وقد قتل نفساً لم ينس أنه ما زال يحمل وزرها فى ضميره .

« قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » . (القصص ٣٣)
 ومع ذلك فما كان ليعود إلى مصر لو لم يكن به اطمئنان أو بعض
 اطمئنان إلى أنه لن يطلب بدم ذلك القتل إذا حسنت سيرته فيهم
 واستأنف حياة جديدة خالصة من العداة والعدوان ، وذلك في عهد
 الملك الجديد الشاب سبتي مرنيتاح بن مرنيتاح .

أتري إلى أن العقوبة أو الدعوى الجنائية كما يقول أهل القانون قد
 سقطت بالتقادم أو مضى المدة وإن ظلت ماثلة في الأذهان ؟ ! فقد
 ذكره فرعون بذلك حين لقيه فمن عليه أن رباه جده وأحسن مثواه أبوه .
 « قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك
 التي فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففرت
 منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » .
 (الشعراء ١٨ - ٢١)

فقد فر موسى لما خاف ثم عاد حين أمن ، فإن كان ذلك كذلك
 فمتى تسقط الدعوى الجنائية في مصر في ذلك الأوان البعيد ؟ ! فلقد
 خرج موسى في أعقاب جريمته فراراً من العقاب إلى مدين .
 هناك استقبله والد الفتاتين فعرض عليه إحدى ابنتيه على أن يأجره
 أعواماً كان حريصاً على استطالتها ما استطاع ، ولكنه إنما عرض عليه
 الأجل الذي لا شك يقبل موسى قضاءه لاجئاً بعيداً عن مصر وهو السنون
 الثماني مستوهِباً منه - إن شاء - أن يتمها عشراً . وفي سفر التكوين من
 التوراة (٢٩ : ١٨) أن يعقوب تقدم إلى خاله لابان خاطباً ابنته راحيل
 زوجاً فقال : « أخدمك سبع سنين » . راحيل ابنتك الصغرى » وقد كان
 لرقم السبعة فيما يبدو منزلة خاصة في عادات الشرق وتقاليده منذ القديم .
 ولكن صاحب موسى وحماه - فيما بعد - إنما عرض ثمانى ولم يعرض
 سبعة ، كأنما تقدم - مع طمعه في عشر - بما لا بد أن يقبله موسى

اضطراباً حتى تسقط العقوبة ثم حتى يستطيع العودة إلى بلده العزيز الذى لم يعرف بلداً سواه .

* * *

ثم كان ذلك الموقف المشهود حيث نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، وحيث أدرك موسى أنه بذلك مقبل على جليل من الأمر خطير .

« قال رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون » .

(الشعراء ١٢ - ١٤)

وقد شرح ذلك مبيناً شيئاً من قلة الثقة بالنفس « قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إني أخاف أن يكذبون » . (القصص ٣٢ - ٣٤)
ثم توجه إلى ربه بالدعاء :

« قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى . واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى ، اشدد به أزرى وأشركه فى أمري . كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤالك يا موسى » . (طه ٢٥ - ٣٦)

* * *

وبعد ، فلعلنا بدراستنا للحياة المصرية والأدب المصرى أن ندرك الحكمة من نزول الآية والمعجزة بالصورة التى شاء الله أن تنزل بها ، فما كانت لتنزل إلا فى أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم ، فتكون محققة فى أعينهم على غير قاعدة ولا قياس لخارق من الأعمال طالما فكروا فيه وشمروا به وضربوا به فى أغوار الوهم وتخيلوه .

وقد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر والسحارين ما كان الناس يخرجون به إلى عالم الغيب من عالم الشهادة ، ومن دنيا

الواقع إلى آفاق الخيال ، وكان المصريون - فيما تشهد به تلك الأقاصيص - يحبون أحاديث السحر ونحوارق الأعمال ، وفيما نسبوه إلى خوفو - في بردية وستكار^(١) - من حبه السحر وإقباله عليه ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس في العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر ويستعينونه عليها .

وقد كنا قد منا ما روى من أن خوفو جلس إلى بنيه يتحدثون إليه ويسمرون معه حيث طفق كل واحد منهم يروي له قصة من غرائب ما روى عن أسلافه من الملوك والكهان ، وهو يستمع إليهم قريبر العين منشرح الصدر ، إذ وقف خضر فحدثه عن كاهن يدعى أوبا أونر بلغه أن امرأته تعلقت بفتى في المدينة كان يقبل عليها فينفق معها سحابة النهار في جوسق منزل في الحديقة عند بحيرة الدار ، فإذا قضى منها وطراً نزل إلى البحيرة يغتسل ، فعمد الكاهن فخلق من الشمع كهيئة التمساح ثم ألقاه في البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم قضى على الفتى حين نزل إليها ، ثم دعا مليكه ليشهد ذلك ، فما رأى الملك التمساح حتى ارتاع وفزع لمراه ، ولكن الكاهن ما كاد ينحني عليه ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع . ثم وقف باو فرع فروى عن سنفرو أن كاهنه چاچام عنخ أشار عليه فيما يحس به من كآبة وضيق لم يجد إلى التخلص منهما من سبيل ، بالتزول إلى بحيرة القصر مع عشرين فتاة من الغيد الحسان من قتيات قصره يجدفن ويغنين ، وقد فعل الملك فتسربت إليه البهجة وسرى إلى نفسه السرور بما شهد من قتيات ليس عليهن من اللباس إلا ثياب من شباك لا تستر شيئاً أو لا تكاد تستر شيئاً ، وبما سمع من غنائهن وهن يسرين به في مياه البحيرة وسط الحمائل والأغصان ، لولا ما رأى من توقفهن عن التجديف لما شكت إحداهن من سقوط حلية لها في الماء وإصرارها على حليتها لا ترضى عنها

بديلاً ولا عوضاً وعد الملك به . هنالك دعا سنفرو كاهنه الذى قرأ من عزائم السحر ما انشقت به مياه البحيرة حيث انطوى نصف على نصف حتى ظهر القاع ورأى الحلية فالتقطها وردّها إلى صاحبها . فلما كان دور ددفرع إذا به يحدث بجلالته عن ساحر يحيا في عهده يقال له جدى ، بلغت به القدرة أن يلحم الرأس المقطوع ويذلّل الأسد لإرادته ، وقد دعى الساحر بين يدي خوفاً حيث عرض سحره عليه وأوقعه بأوزة ثم ثور فصل رأس كل منهما ثم ما زال يقرأ من عزائمه والرأس يقترب من الجسد حتى التحما وعادت الحياة إلى كل منهما .

ولا شك أن ما استعرضنا من تلك الخوارق التى همر بها المصريون إنما تذكرنا بما نزل على النبيين من معجزات ، قدمية التماسيح التى استحالت إلى تماسيح عظيم أربب الملك ، فلما التقطه أو با أونر عاد سيرته الأولى ، إنما تشبه عصا موسى :

« فألقاها فإذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » . (طه ٢٠ - ٢١)

وتشبه كذلك ما قيل على لسان المسيح :

« ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أنخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » .

(آل عمران ٤٩)

ثم نجد فى القصة الثانية شهاً بما كان عند خروج بنى إسرائيل « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق

كالطود العظيم » (الشعراء ٦٣)

« ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى » . (طه ٧٧)

ولا شك تذكرنا قدرة جدى على وصل المفصول من رأس الحيوان بقوله تعالى :

« وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » .
(البقرة ٢٦٠)

صدق الله العظيم وجلت حكمته فيما يختار لأنبيائه من القول والفعل .
إنه على كل شيء قدير .

لقاء فرعون

وصدع موسى بما أمر ، وولى وجهه مع أخيه شطر فرعون يدعوه
« وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل »
(الأعراف ١٠٤ - ١٠٥)

ولكن فرعون لم يسمع له ولم يؤمن به
« فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين » . (يونس ٨٣)
بل لقد عمد فرعون إلى السخرية بما سمع من دعوة إلى الله
« وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين »
(القصص ٣٨)

ثم كان بين موسى وفرعون جدل شق واستطال . وتساءل فرعون
« قال فمن ربكما يا موسى »

« قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

« قال فما بال القرون الأولى ؟ »

« قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء

فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك
لآيات لأولى النهى . . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة
أخرى . (طه ٤٩ - ٥٥)

ويتصل الجدل والحوار

« قال فرعون وما رب العالمين . »

« قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . »

« قال لمن حوله ألا تستمعون . »

« قال ربكم ورب آبائكم الأولين . »

« قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . »

« قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . »

« قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين . »

« قال أو لو جئتكم بشىء مبین . »

« قال فأت به إن كنت من الصادقين . »

« فأتى عصاه فإذا هى ثعبان مبین . ونزع يده فإذا هى بيضاء

لناظرين . قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من
أرضكم بسحره فماذا تأمرون . (الشعراء ٣٣ - ٣٥)

ويردد الملأ من حول فرعون قوله للناس

« قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم

من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجيه وأخاه وأبعث فى المدائن حاشرين .
يأتوك بكل ساحر عليم . (الأعراف ١٠٩ - ١١٢)

« وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم . » (يونس ٨٩)

واستأنف فرعون حديثه مع موسى

« قال أجبثنا لتخرجنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل

بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى . »

قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضحى . »

فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى .
قال لهم موسى ويلكم لا تفترؤا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب
وقد خاب من افترى .

فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان
أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا
كيدكم ثم اتوا صفّاً وقد أفلح اليوم من استعلى .
(طه ٥٧ - ٦٤)

« قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون »
« قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء
فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » . (يونس ٧٧ - ٧٨)
« وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين .
قال نعم وإنكم لمن المقربين .

قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .
قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر
عظيم » . (الأعراف ١١٣ - ١١٦)

ونظر موسى

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس
فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك
تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » .
(طه ٦٦ - ٦٩)

« وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون .
فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .
وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .
قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا

منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف
ثم لأصلبنكم أجمعين » . (الأعراف ١١٧ - ١٢٤)

« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من
خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينما أشد عذاباً وأبقى » .
(طه ٧١)

ذلك وعيد أى وعيد . وهو وعيد ذكره وانفرد بذكره القرآن من
دون التوراة ، وهو خبر خلاق بالمؤمنين قبوله والإيمان به ، لأنه تنزيل
لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من رب العالمين . ومع ذلك
فقد شاء الله أن نجد مصداقاً لما بين يدينا من القرآن وأن ينحدر إلينا من
وثائق التاريخ نص يصور وسائل التعذيب فى زمان « فرعون » وقال النسفى
إنه أول من قطع من خلاف وصلب . وقد ورد النص عن مرنبتاح الذى
شاع فى الناس أنه فرعون الخروج^(١) . وعندى - وسوف أذكر
الأسباب - أن فرعون الخروج إنما كان سبى مرنبتاح بن مرنبتاح بن
رمسيس ، وأنه إنما هدد بما كان استن أبوه فيمن كانوا عليه خارجين .

وقد تداعى الناس بعد ذلك اللقاء بين السحرة وبين موسى إلى بيوتهم
أن يستأنفوا حياتهم مع دينهم الجديد .

« وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم
قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » . (يونس ٨٧)

ولكن البطانة من حول الملك وكل الملوك لا تخلد إلى السكون فهى
دائمة القول دائمة التحريض .

« وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض
ويدرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون .

قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون .

ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يبطئوا بموسى ومن معه إلا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . (الأعراف ١٢٧ - ١٣٦)

غير أن الكوارث فيما روى القرآن وروت التوراة قد لحقت بمصر يومئذ سنين فأصيبت بالقحط والعلل والآفات ، ولم تكن مصر على كل حال بمنجاة كما قدمنا مما قد ينزل بها من ذلك على مدى التاريخ ، وربما انحبس النيل فصوح الزرع أو زاد فأغرق البلاد بطوفان عظيم ، وهو على الحالين كما قدمنا نذير النوازل ونقص من الثمرات . فإذا وقعت الواقعة انتشرت بها الأدواء والأوبئة فحصدت الناس حصداً يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور . وقع بها ذلك مثلاً في أعقاب الدولة القديمة حيث روى حكيم ذلك الزمان أيودور أن الناس كانوا يلقون بموتاهم في النيل حتى صار مدفناً ؛ ووقع أواخر الأسرة العشرين حتى اشتد بالناس الجوع عاماً سموه لشدة عام الضباع . ولقد كان المصريون يتخيّلون بلادهم بما اندلع فيها من الأوبئة واستشرى فيها من الموت كأن ربهم اللبؤة الضارية سخمت قد انطلقت في الناس أعاصفة ضارية تهش

لحومهم وتلغ في دمائهم ، حتى لقد انطبع خيالهم هذا في تصوير معارك الملك ومذابحه الحربية فيشبهونه « كأنه سخمت العاصفة حين المجاعة »^(١)

ولذلك فغير بعيد ولا شاذ أن تشحب الوجوه وتعقم النساء ويحل بالناس الضعف والهزال وأن يصابوا — كما ذكر المفسرون — بالتزيف والرعاف فيسيل الدم من أنوفهم لسوء التغذية وعوز الجسم إلى ما يقيم عليه حيويته ، وقد يكون ذلك لعدة غامضة وداء مجهول . وكذلك فغير بعيد — مع الصورة التي أنشأها أيپوور أن تقعد بالناس الصحة والهمة عن بذل الجهد للحرث والزرع برغم فيض النيل ، — فكيف بالزرع وقد أرسل عليهم الطوفان — وأن تترك الأرض مزرعة للصفادع — وكانت معروفة في مصر منذ أقدم العصور باسم قرة — حتى يضيق الناس بها . وكانت مصر عرضة لكوارث الجراد التي تأتي على كل شيء فلا تبقى ولا تذر ، وكفى بالمصريين نقصاً في الثمرات أن يرسل عليهم الجراد ، وكان لكثرة الهائلة إذا أقبل مضرب المثل للجيوش الكثيرة الساحقة ، إذ كان ينزل بمصر منذ أقدم العصور سحبا تكاد تحجب الشمس عن العيون كما وصفته نصوص الأهرام^(٢) . وكان الجراد في مصر القديمة معروفاً باسم سنحيم كما كان القمل معروفاً باسم ككت وما زال في بعض صعيد مصر يسمى غتفات . على أن مفسري القرآن يرون في لفظ القمل بالقرآن مفهومات شتى ، فقالوا هي الدبى وهي أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها أو البراغيث وكبار القردان وذكرت التوراة في ترجمتها العربية والألمانية البعوض وفي ترجمتها الإنجليزية والفرنسية القمل وهي على كل حال من الحشرات المألوفة في مصر والتي قد تنتشر وتكثر في وقت واحد ، ولذلك فقد نفسر اللفظ القرآني بالحشرات

K.A. Kitchen, Ramesside Inscriptions (Oxford 1971) (١)

Vol. II (fascicle 6) p. 318 line 4, 5.

Pyramid Texts § 891, 1772.

(٢)

عامة وهو في أكبر الظن مفهوم الآية الكريمة والله وحده علام الغيوب .
ومهما يكن من شيء ، فلم تكن أحوال مصر من بعد مرنبتاح مستقرة
ولا هادئة ، ولا نكاد نعرف عن تلك الفترة من تاريخها إلا لمعاً تدل
على اضطراب في الحكم ونزاع على العرش وفساد في المجتمع . ولا شك
— إيماناً بالله وكتاب الله — فيما كان من تعرض مصر لما جاء في الذكر
من سورة الأعراف ، وهو غير بعيد عقلاً واستدلالاً من شواهد التاريخ
وغير بعيد أن تكون السنون الست من عهد سبتي الثاني قد امتلأت بالفصل
الآخر من قصة بني إسرائيل في مصر ، حيث أخذ آل فرعون بالسنين
ونقص من الثمرات بما أرسل عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم آيات مفصلات منجمات عاماً من بعد عام ، وأن يكون ذلك
من عوامل انهيار الأسرة التاسعة عشرة وسقوطها بعد ذلك ، إذ خلف
سبتي الثاني ابنه سبتاح ، ولكنه أوتى الحكم صبيّاً حيث أقامه على العرش
سورى كان صاحب النفوذ في الدولة اسمه باى ، ومع ذلك فلم يجاوز
حكم سبتاح أعواماً ستة لم تخل من نزاع واضطراب ازداد من بعده
حدة وضراماً ، إذ انفرد بالسلطان مع خلو العرش سورى لعله باى نفسه (١)
ودخل حكام الأقاليم فيما بينهم في حروب دامية وصراع طويل ، وأهمل
القانون حتى حرم بكل إنسان حقه كما جاء في بردية هاريس فيما صورت
من أحوال تلك الفترة على لسان رمسيس الثالث الذى قبض بعد ذلك
على السلطة حيث يقول :

« قال الملك أوسرماعت رع عاش موقفاً سليماً ، الإله العظيم
للأمراء وقادة البلاد وللمشاة والفرسان والشرادنة وأعداد الرماة وسائر
مواطنى أرض مصر .

ألا فانصتوا حتى أنبئكم بفضائلي التى فعلت حينما كنت ملكاً
للشعب . لقد كانت سقطت مصر ، وحرّم كل امرئ من حقه ، ولم

يكن متحدث باسمهم منذ أعوام كثيرة . . وكانت أرض مصر موظفين وحكاماً يقتل أحدهم أخاه كبيراً وصغيراً . . ثم حل عهد آخر في أعوام خاوية حيث نصب نفسه يرسو السورى أميراً . ففرض على البلاد كلها الجزية له ، وجمع رفاقه ونهب أموالهم ، فعاملوا الآلهة كما يعاملون الناس ولم تقدم قرابين في المعابد .

فلما أن ارتدت الآلهة بالرحمة لتقيم البلاد على الحق كما كانت أحوالها الطبيعية ، أقامت ابنها الذى خرج من جسدها ليكون عاهلاً (١) .

الخروج

ولم يعد لبني إسرائيل ومن تبعهم من المصريين المتهودين إلى البقاء في مصر من سبيل . وقد ضاق موسى والذين هادوا بتلك الحياة التي فرضها فرعون فلم يجد إلا أن يستعدي الله عليه :

« وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » . (يونس ٨٨ - ٨٩) .

وقد كان موسى وهارون قد حاولا - عن أمر الله - استئذان فرعون في الخروج .

اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » . (طه ٤٣ - ٤٧)

(١) Breasted, op. cit., IV, § 398; Pritchard, op. cit., p. 260.

ولم يفلح موسى في استرضاء فرعون ولا إقناعه ، بل لقد وقع بينهما جدل عنيف بلغ حد التراشق بالألفاظ وبلغا إلى نقطة اللاعودة كما نقول اليوم .

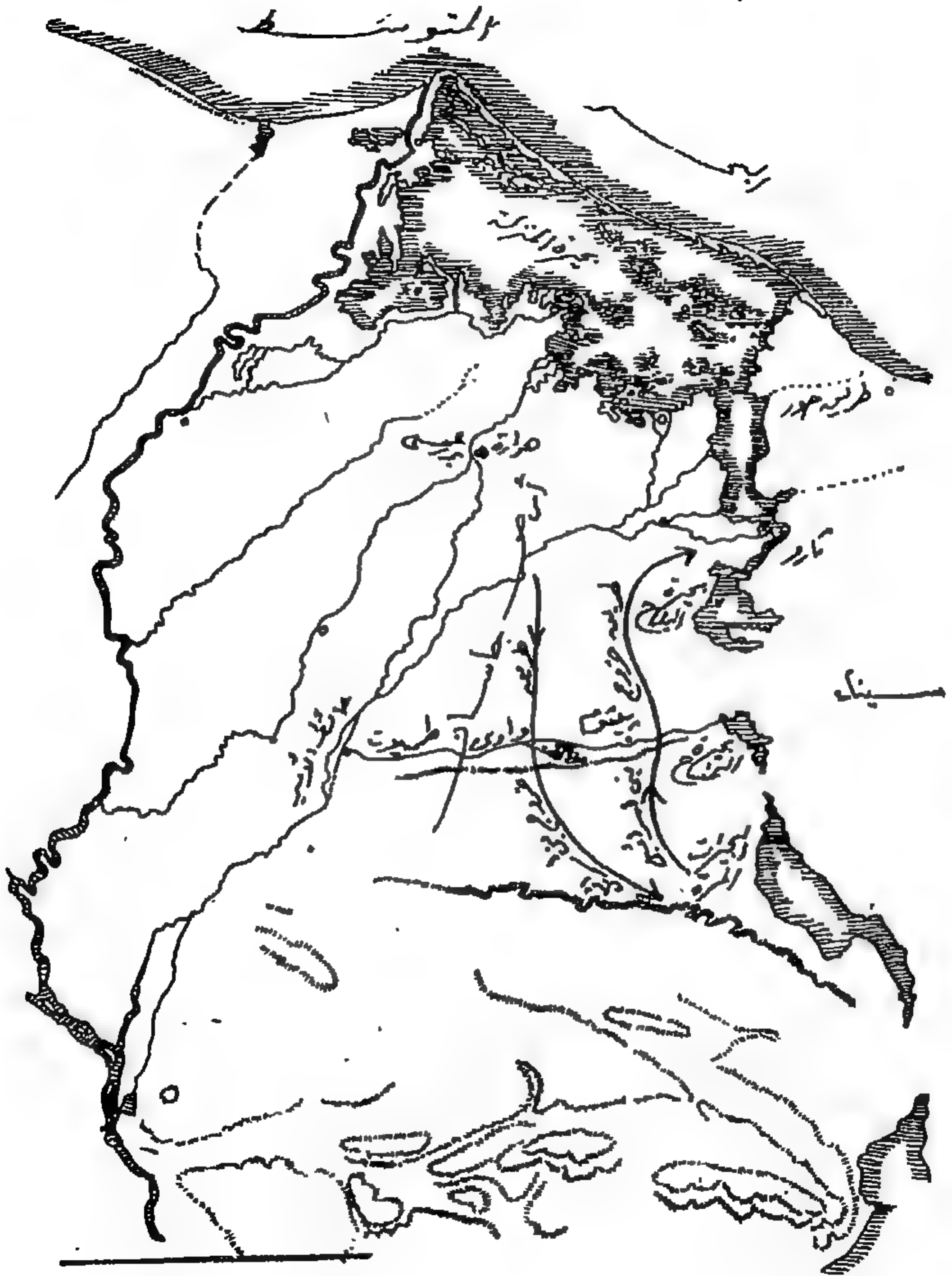
« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً . »
(الإسراء ١٠١ - ١٠٢)

ولم يعد لبني إسرائيل إلا الخروج من مصر هاربين ، فكان أن أذن لهم رب العرش بالخروج بليل ناجين .

« وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغاظون . وإنا لجميع حاذرون . »
(الشعراء ٥٣ - ٥٦)

وكان موسى قد خبر الطرق من مصر وإليها إذ خرج منها - بعد قتله المصري - خائفاً يترقب على طريق حرص من غير شك أن يكون بعيداً عن العيون والرقباء ، وعاد من غير شك أيضاً على الطريق السوي الذي يسلكه المسافرون ، وذلك كما وقع للأمير سأنوهي بما يقرب من القرون السبعة من قبل موسى .

كان طريق حورس الملكي ينبعث من ثارو - بموضع القنطرة الآن - إلى غزة جنوبي فلسطين ماراً بالعريش ، حيث احتل مكانة خطيرة في الحركات العسكرية التي وجهها الفراعين أو تعرضت لها مصر من قبل جيرانها . ولذلك فقد اشتد حرص الفراعين على تأمين تلك التخوم التي كانت عرضة لغارات البدو على شرق الدلتا ، وكانت تدابير الدفاع قد اقتضت في الأسرة الخامسة منصباً خاصاً يتولى الإشراف على الأسوار والصحراوات والقلاع الملكية في منطقة عين شمس ، وذلك لتأمين الطرق وحماية القلة القليلة من الآبار التي يعتمد عليها في سفرهم المسافرون .



خروج بنی اسرائیل
(شکل ۷)

ولقد تحدثت قصة سانوهى عما كان عليه أن يتجنب فى فراره من مواقع المراقبة والدفاع التى كانت تغطى التخوم الشرقية بأسرها، حيث قامت كذلك أسوار قوية عرفت باسم أسوار الأمير فى موضع الإسماعيلية الآن وقلعة ثوكوت إلى الغرب منها فى موقع تل المسخوطة، وذلك فضلاً عن أبراج المراقبة عند الآبار فى الجنوب. وكان على كل مسافر أن يخضع للتفتيش عند مخافر الحدود كما كان على كل داخل إلى مصر أن ينتظر حتى يأتیه الإذن بالدخول. ولذلك فقد اضطر سانوهى فى فراره أن يوغل إلى جنوبى بحيرة التمساح عند البحيرات المرة حتى وجد سبيل الإفلات، وكذلك فعل موسى فى أكبر الظن حين هرب من مصر وحيداً إلى مدين، وكما فعل من بعده وقبيل خروجه بنى إسرائيل عبدان آبقان أرسل فى أثرهما ضابط حفظ لنا تقريره عن تعقبهما. فقد كتب كما ورد قائد قوات ثوكوت إلى زميله إبنى وباك ن بتاح يحيطهما خبراً بذلك، ويروى لهما ما تنطس من أخبار الآبقين، إذ ذكر أنهما مرا بمخفر ثوكوت قبيل وصوله إليه بساعات وأنهما سبقاه فاجتازا الحصون الشمالية من مجدل أو قلعة سبتى مرنبتاح قبل أن يدركهما، ثم يقول الضابط صاحب الرسالة « فإذا بلغكما كتابى فاكتبوا إلى بكل ما وقع لهما وعمن استدل على أثرهما والمخفر الذى استدل عليه والرجال الذين جدوا فى أعقابهما والعدد الذى أرسلناه فى طلبهما » (١).

وقد تحدثت التوراة عن خروج بنى إسرائيل أنهم وقد بيتوا النية على الفرار قد « طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش

(١) Gardiner, Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles 1937)

p. 66-67; Pritchard, op. cit., p. 259.

(شکل ۸)



من الرجال عدا الأولاد ، وصعد معهم لقيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وافرة جداً .
(خروج ١٢ : ٣٥ - ٣٨)

ولا حاجة بنا بعد الذى بينا من قبل فى الوقوف هنا عند تعداد بنى إسرائيل عند الخروج ، وأكبر الظن أن لفظ الألف قد زاد فى الترجمة على الرقم الأصيل ، أو لعله صرف إلى معنى العدد فترجم على غير مقصده ومرماه ، فقد يؤدى لفظ الألف فى العبرية فضلاً عن المئتين العشر معنى السبب أو الإلف بكسر الهمزة والألف ، فكأن العبارة فى مصدرها الأصيل عن المرتحلين من رعمسيس إلى سكوت أنهم كانوا سبباً سبب ماش من الرجال .

ومضت التوراة فى حديثها عن خروج بنى إسرائيل فتقول :
« وارتحلوا من سكوت ونزلوا فى ايتام فى طرف البرية . . . ثم أمروا أن ينزلوا أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » .

(خروج ١٣ : ٢٠ ، ١٤ : ١ - ٢)

ولقد جهد علماء الآثار ما استطاعوا فى تحقيق أسماء تلك المواقع فى شرق مصر وفى مقابلتها مع ما انحدر إلينا فى الآثار من أسماء المواضع المصرية القديمة^(١) ، حيث تعرضت كما وردت فى التوراة للتحريف والتصحيف فقربوا لفظ سكوت بشبيهه ثوكوت وبين مجدل بمجدل سبتى مرنيتاح وهما الموضعان اللذان شهدناهما فى رسالة الضابط عن العبدان الآبقين ، وإن ظل بعض هذه الأسماء موضع جدل كثير .

ومهما يكن من شئ ، فلقد اتجه بنو إسرائيل إلى الشرق حتى وقفوا بساحل الماء ، إذ بدعوا رحلتهم بالسير إلى الجنوب كما فعل سنانوهى والعبدان الآبقان وكما عسى أن يكون فعل موسى فى فراره إلى مدين ، ثم استأنفوا المسير إلى الشمال حتى وقفوا حيث وقعت المعجزة الكبرى عند بحيرة البلاح التى تخرج من بحيرة المنزلة فى أكبر الظن .



(شکل ۹)

وعلم بذلك فرعون وجنوده .
 « فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا
 لمدركون » . (الشعراء ٦٠ - ٦١)

وحدثت التوراة في ذلك فقالت :
 « فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون
 وعبيده على الشعب ، فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا ،
 فشد مركبته وأخذ قومه معه ، وأخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات
 مصر وجنوداً مركبة على جميعها ، وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى
 سعى وراء بني إسرائيل ، وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيعة ، فسعى
 المصريون وراءهم وأدركوهم بجميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم
 نازلون عند البحر عند فم الخيروت أمام بعل صفون .

فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون
 وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى هل لأنه
 ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية . ماذا صنعت لنا حتى
 أخرجتنا من مصر أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر
 قائلين كف عنا فنخدم المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين
 من أن نموت في البرية » . (خروج ١٤ : ١٥ - ١٢)
 أما موسى فإنه .

« قال كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب
 بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلقنا ثم الآخرين .
 وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية
 وما كان أكثرهم مؤمنين » . (الشعراء ٦٢ - ٦٧)

« وجاوزنا بيني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا
 أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من
 المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . (يونس ٩٠ - ٩١)



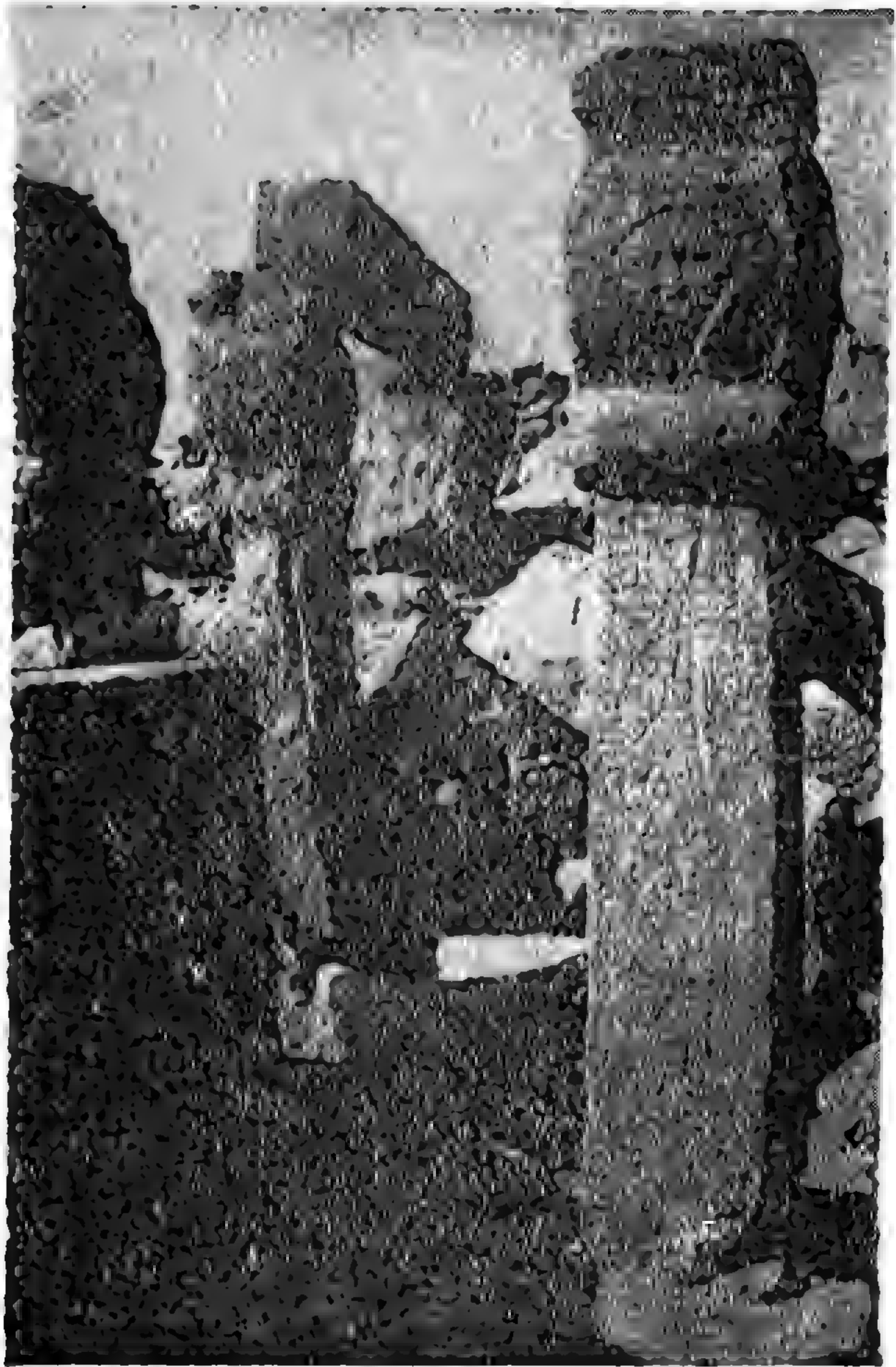
(شکل ۱۰)

غرق فرعون كما ذكر القرآن والتوراة . ولذلك فربما اتخذت طائفة من الناس من غرقه دليلاً ينكرون به على خروج بنى إسرائيل أن يكون يقع في عهد ملك وجدت في طيبة جثته محنطة . ومع ذلك فليس الغرق على ما يقولون بدليل .

فلقد كانت عادة المصريين وعقيدتهم التي رسخت في الأعماق قد جعلت إقرار الميت في قبره وإجراء الشعائر عليه أهم ما يقدر المصري ويحرص عليه ، وإلا حرم الحياة الأخرى ونعمة الخلود . ولقد تجلت آية ذلك وتتجلى فيما خلف المصريين من الأضرحة والقبور ، وفيما كانوا يبذلون من الجهد — ولو اضطروا إلى القتال — في سبيل استخلاص جثة رجل مات أو قتل في الغربية لدفنها في بلده . ولقد كان ذلك واجباً يرعاه الملوك وترعاه الدولة وتتحمل نفقته في كثير من الأحيان ، ولئن كان ذلك لأواسط الناس في مصر فماذا عسى أن يكون للفراعين من سلالة الأرباب ؟ ! فلا شك إذن بحكم طبيعة المصريين أن تكون جثة فرعون الغريق قد انتشلت من الماء حيث حنطت ودفنت بما تعود المصريون من الدفن الكريم ، ولقد مر بنا أن المصريين قد خصوا الغريق المنتشل فيما بعد بعبرة الحميد « حسى » .

ولقد ذكر الله في محكم آياته غرق فرعون في سورة يونس وذكر تعالى نجاته ببدنه من الهلاك لتكون آية للناس .
« فاليوم ننجيكَ ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » .
(٩٢)

غرق فرعون ونجا ببدنه ليكون لمن خلفه آية .
ولم تكن الآية لمن خلفه جيلاً أو جيلين ، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال والمئات الكثيرة من السنين ؛ وهي إنما صارت كذلك بما مكن رب العرش لأهل هذا المصر من سلطان العلم وأسرار التحنيط .
وإلى القاهرة يأتي اليوم الحجيج السائحون إلى مصر من كل فج



(شکل ۱۱)

عميق ليعبروا في خطوة واحدة ولحظة عابرة تلك العشرات والآلاف من السنين . وليشهدوا فراعين مصر في رقدتهم التي كتب على العالمين . هذا رمسيس الثاني بشعره الأشيب وما زال به أثر الخضاب بالحناء ، (شكل ٨) . ثم هذا مرنپتاح شيخاً أصلع وقد كان بادناً (شكل ٩) . ثم هذا سيني مرنپتاح أو سيني الثاني (شكل ١٠) . ذلك من آيات الله .

وهي آية تتمثل في كل هؤلاء وفي غيرهم من الفراعين ممن نراهم راقدين . واحد من هؤلاء كان يعذب بني إسرائيل فيذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، ثم واحد من هؤلاء رفض ملة موسى وكان صاحب خروجهم من مصر . ومع ذلك فما زال اليقين عند صاحب اليقين وما زال العلم عند رب العلم يؤتيه من عباده من يشاء وهو علام الغيوب .

ما بعد العبور

وبعد ، فلقد أفلت بنو إسرائيل من فرعون وجنوده وانطلقوا إلى سيناء ، وشغل المصريون عنهم بمصيبتهم في ملكهم الغريق وتتويج خليفته الجديد . ولعل المصريين قد كفوا عن تعقبهم هناك وقد عرفوا أنهم طائفة هاربة لا تبغى سوى النجاة ولن يكون منهم على مناجمهم في سيناء من خطر يحذرون . وكانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر مصادر مصر بالفيروزج والنحاس ، حيث تركت بعثات التعدين كثيراً من النقوش في وادي مغارة وسراية الخادم ، وكان المهندسون والعمال ممن يذهبون إلى سيناء يتعبدون للآلهة حتحور ربة تلال الفيروزج طالبين إليها الحماية والأمن ويقربون إليها الحمد والثناء على ما تقدم إليهم - في عقيدتهم - من خير .

ولقد اقتضى استغلال المناجم المنتظم وقيام مجتمعات العمال فيها قيام معبد منذ الدولة الوسطى للآلهة حتحور في سراية الخادم نرى أطلاله

اليوم مصورة في (شكل ١١) . والذي لاشك فيه أن بنى إسرائيل قد اتبعوا الدرب الذى كانت قوافل التعدين تسلكه إلى تلك المناجم فى سيناء وأنهم مروا بتلك المناجم فى تجوالهم هناك . حيث أشار القرآن - وحده - إلى مجتمع مقيم حول عبادة له فى تلك البقاع . ولقد أحس بنو إسرائيل بحكم مقامهم فى مصر واختلاطهم بالمصريين واتخاذهم حضارتهم بالحنين إلى حياتهم الأولى وتعلق قلوبهم بأرباب المصريين التى كانوا - معهم - يعبدون .

« وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » . . . (الأعراف ١٣٨)

لذلك فلم يكذ موسى يتركهم لميقات ربه حتى تداعوا إلى عبادة العجل واتخاذ التماثيل .

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » . . . « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين » . (الأعراف ١٤٢ ، ١٤٨)

وأخبر الله موسى بضلال قومه .

« وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً . . . قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يمل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ولا كنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك أتى السامرى فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى » . (طه ٨٣ - ٨٨) (١) .

وكانت عبادة العجل في مصر قديمة امتدت منذ أقدم عصور التاريخ حتى دخلت المسيحية وغلبتها فيها. وقد عرف أشهر تلك العبادات باسم مرور وحي (منيفس وأبيس في تصحيف اليونان) حيث عبد الأول في عين شمس رمزاً لإله الشمس والثاني في منف مدينة پتاح رمزاً لپتاح . وكان پتاح هذا يتمتع على عهد الأسرة التاسعة عشرة بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية ، كذلك حرص أمراء تلك الأسرة من أمثال مرپتاح الذى صار إليه الملك من بعد رمسيس الثانى على تولي منصب الكاهن الأكبر للعجل حى (أبيس) ومن قبله كان أخوه نعمواس كاهنه الأكبر كذلك ، وذلك فضلاً عن عبادات أخرى اتخذت صورة العجل في مصر مثل مين ومنتو .

وكذلك عبدت حتحور في صورة البقرة وكانت في عقيدتهم مرضعة ربهم حور بن أوسير ، ثم ربة الحب والحنان والموسيقى ثم صارت ربة للجبانة ترعى الموتى وترأهم ، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة منها « الذهبية » أو ربة الذهب و « صاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها » ، كما كانت لها تماثيل مموهة بالذهب حفظت بمتحف القاهرة مثل منها .

ومن المحقق أن بنى إسرائيل باتخاذهم العجل من بعد موسى إنما كانوا لما اعتادوا في مصر من الآلهة مرتدين ، وإنهم إنما اتخذوه من حلبيهم من الذهب فتنة بحتحور الذهبية وما كان لها من منزلة في النفوس ، وذلك فضلاً عما تأثروا به من حب المصريين للذهب وصنع تماثيلهم الثمينة منه . وما ندرى لعل لله حكمة فيما كان من أمره بنى إسرائيل أن يذبخوا بقره وأنها « بقره صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » ولقد كان البقر في مصر من أنواع وألوان ، حيث كان فيها كذلك الأحمر والأسود ونوع آخر لا نراه اليوم يجمع بين البياض والسواد ويشبه ما هو معروف في أوربا اليوم . ولعل فيما أبدى بنو إسرائيل من تلكؤ ومراوغة

في ذبح البقرة وما كان من تنطعهم في التساؤل عنها وعن لونها من أثر ما كان وقر في نفوسهم من تقديس حتمور .

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون » . (البقرة ٦٧ - ٧١)
ولئن كان خرج بنو إسرائيل من مصر فقد ظلوا منها على تذكرو وحنين ، فلقد ضربوا في سيناء حيث وجدوا حياة فيها مع البساطة الحرية والأمن وفيها الخلاص مما كانوا يثورقهم من الذلة والخوف ، وفيها من الرزق ما يأتيهم حلالاً سائغاً بغير مشقة ولا جهد .

« وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم » (الأعراف ١٦٠)

كانوا يجدون المن أو العسل البري يشتارونه في غير مشقة ولا جهد وكانوا يجدون السلوى أو السمانى وفيراً يسيراً صيده ، وكانت سيناء وما زالت قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة تقبل في الحريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر ، فما إن تجد الأرض حتى تحط فلا تكاد حتى تستريح تريم ، فإذا لاحت تباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء في طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم .. (١)

ومع ذلك فلم يرض اليهود بما نزل عليهم من رزق الله، إذ كان الذل الذى احتملوه فى مصر أحب إليهم من الحرية فى الصحراء ، وقد تبعوا موسى فى الخروج مكرهين ، ألم يذكروه عند شاطئ البحر بقولهم : « كف عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية » .

فتدمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية ، وقال بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع » (خروج ١٦ : ٢ - ٣)

ثم طفقوا يعددون ما كانوا يجدون فى مصر من الخبز واللوان الطعام : « فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً ، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم ، والآن قد يبست أنفسنا ، ليس شئ غير أن أعيننا إلى هذا المن » (عدد ١١ : ٤ - ٦)

وفى إعجاز قرآنه العظيم أخبر الله بذلك نبيه فى سورة البقرة قال : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . (البقرة - ٦١)

كانت وجهة موسى بعد الخروج أرض كنعان ، فيقول كاتب التوراة « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لتلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر » (خروج ١٣ : ١٧)

على أن موسى قد طفق يوالى رسالته ، فيتحمل ما حمل من قيادة (٥)

هؤلاء الناس وقد جعلهم الله أحراراً ، ملوكاً لأنفسهم ، ملوكاً لأرزاقهم ، وآتاهم من ظلال الغمام والرزق ما لم يؤت أحداً من العالمين ، فهو يريد الخروج بهم من سيناء إلى أرض كنعان ، ولكنهم بما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة وما رسخ في أعماقهم لذلك من الجبن والخوف إذا هم يتقاعسون ، كما كانوا عند خروجهم من مصر متقاعسين . وكذلك استشعروا من دخول كنعان .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهما الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .

قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين . (المائدة ٢٠ - ٢٦)

ما كان لموسى إلا أن يرفع شكاته إلى الله في أمر أتباعه الفاسقين فكان أن حقت عليهم كلمة الله وحكمه بتحريمها عليهم وبتيهم في الأرض إلى ما شاء الله .

* * *

وبعد ، فأما وقد خرجوا من مصر يهيمون في الأرض فقد خرجوا كذلك عن نطاق ذلك الكتاب ، ولذلك فلنذرهم هائمين لنعود إلى ما قدر لمصر من حظ وما حظيت به من صفة في كتاب الله ، وسنة رسول الله .

موطن بني إسرائيل في مصر وفرعون من القرآن

دل القرآن على مقام بني إسرائيل في مصر من جملة آيات من كتابه العزيز ، فلقد ولد موسى ونشأ حيث كان أبواه وشيعته يعيشون في عاصمة مصر أو عندها غير بعيد من مقر فرعون ، وآية ذلك أن أم موسى قد ألقته في البحر « وقالت لأختها قصيه فبصرت به عن جنب » . ولم يبتعد تابوت موسى إلا بمقدار مسرى النيل الهادئ ضحوة من نهار وبمقدار طاقة الفتاة أو الصبية على المسير من ورائه حتى ألقاه البحر بالساحل فالتقطه آل فرعون ، وبمقدار طاقتها على العودة إلى أمه لترتد بها متقدمة إليهم في إرضاعه وكفالاته .

« إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن » . (طه ٤٠)

ثم دل على مقام بني إسرائيل - حين تقرر خروجهم بليل وتلقى موسى أمر ربه « فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون » . (الدخان ٢٣) ولم يبتعد بنو إسرائيل عن العاصمة إلا بمقدار مسيرهم بين منتصف الليل ومشرق الشمس ، إذ خرج فرعون وجنوده في طلبهم مشرفين على البحر حيث أدركوهم حين تنفس الصبح مع مطلع الشمس أو داخلين وقت شروق الشمس كما يقول المفسرون في قوله « فأتبعوهم مشرقين » فلما تراعى الجمعان قال أصحاب موسى إنا المدركون .

(الشعراء ٦٠ - ٦١)

كان بنو إسرائيل إذن يسكنون إلى الشمال الغربي من البحر الأحمر وخليج السويس ، وكان مقامهم هذا في وادي طميلات غير بعيد من عاصمة مصر آنذاك ، وذلك في البقعة التي سميت في التوراة أرض جاسان مصحوحاً عن لفظ جسم أو جاسام ، حيث فرضت على بني إسرائيل السخرة « فبنوا لفرعون مدينتي فيثوم ورعمسيس » .

كانت عاصمة مصر إذن على عهد يوسف أيام احتلال الهكسوس كما كانت على عهد موسى تقع شرقى الدلتا ، ولذلك فما ينبغي في فرعون موسى إلا أن يكون ممن كانت عاصمتهم هناك . ولا سبيل إلى الأخذ بغير ذلك من قول . فلقد ظلت طيبة في صعيد مصر عاصمة مصر من بعد الهكسوس حتى عهد رمسيس الثاني الذى نقل مقر حكمه منها إلى مدينة أنشأها على أنقاض مدينة الهكسوس سماها « بر رعمسى مري آمون عانختو » بمعنى « دار رمسيس حبيب آمون عظيم الانتصارات » وكان المصريون كثيراً ما يكتفون بصدر الاسم دون نعوته فيقولون بر رعمسى كما كان يغفلون من أسماء مدنها ومواقعهم الجغرافية ما صدر منها بلفظ « حوت » و « بر » بإسقاطه فيصير — كما جاء في التوراة — رمسيس ليس غير، وربما كان في قرب أرض جاسان من العاصمة على عهد رمسيس ما دعا كاتب سفر الخروج من بعد أمة من الزمان إلى تسميتها أرض رمسيس بدلا من أرض جاسان ، وكانت تمتد من غير شك حتى برتوم — فيثوم — كما تمتد إلى الغرب حتى المدينة التى أضفت اسمها على هذه البقعة كلها وهى جاسام . ويبدو أن هذا الاسم إنما عرف أول مرة في أنشودة تصف ستوسرت الثالث بأنه درع نحاس من جاسام ، حيث ينصرف المعنى إلى صلابة القلاع في جاسام كأنها النحاس ولم تكن هذه القلاع سوى قلاع امنمحات الأول التى كان أقامها على حواف الأرض المزروعة^(١) . ولقد استقر القول في تحديد موقع جاسان حيث عثر على زون لماعل الأسرة الثلاثين تحت نبف (نكتانيبو الأول) في صفت الحنة إذ ورد فيه أن الملك تكريماً لأبيه سويد رب المشرق قد ذهب إلى جسة عن مشورة من ربه الأقدس في هذا المكان فأقام في هذا الزون تمثال هذا الإله .

فرعون

عرف عاهل مصر في عصورها القديمة باسم فرعون ، وهو لقب اختص به كما اختص كسرى عند الفرس والنجاشي عند الأحباش من ملوك العالم القديم . وعن فرعون تحدثت التوراة وبه نطق القرآن ، فجاء في العبرانية بلفظ « فرعو » وفي العربية فرعون ، ولم يكن هذا اللفظ سوى تصحيف للفظين المصريين پرعو بمعنى البيت العظيم ، وكان يكنى بتلك العبارة منذ الدولة القديمة عن قصر فرعون دون شخصه ، أو يكنى بها أحياناً عما يتصل به من شئون القصر والحاشية ، فكان المصريون إذا ذكر اسم الملك اتبعوه بالدعاء له بالحياة والرفاهية والسلامة ، وكذلك صاروا يفعلون إذا ذكر پرعو ، وإن ظل القصد راجعاً إلى معنى البيت العظيم .

على أن دلالة اللفظ على شخص الملك نفسه لم تثبت إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة على عهد أخناتون - إذ لقب بذلك على بعض آثاره كما نخطب به في بعض ما وجه إليه من الكتب . فلما كانت الأسرة التاسعة عشرة - وهي أسرة رمسيس الثاني وبنيه - ذاع اللقب فيما ورد عن الملك من الخبر والخطاب ، وحل في أحيان كثيرة محل لقب الجلالة فقليل خرج « جلالته » أو خرج پرعو على سواء (١) .

ومهما يكن من شيء ، فإن القرآن لم يذكر « فرعون » إلا فيما روى من نبأ موسى ولم يذكره مرة واحدة فيما أورد من سيرة يوسف عليهما السلام . وتلك دقة الإعجاز التي قد لا تتوفر لأحرص الناس من العلماء والمؤرخين ، فلم يكن لقب فرعون بدلالته على ملوك مصر ذائعاً في ذلك الزمان من عهد يوسف ، ولم يكن الملك الذي دخل يوسف في خدمته مصرياً فيستحق لقباً اختص به الملوك من المصريين ، بل كان

أجنبيًا يناصرهم ويناصبونه العداء ، كذلك لم يكن الملك هو بطل القصة كي يخصه القرآن بلقب يفرد به وينبه إليه ، ولكنه أثر فرعون موسى بذلك اللقب الذي أطلقه اسماً له وأجراه علماً عليه تمييزاً من سائر الملوك وقصراً عليه وحده لما وصفه به من المروق والطغيان ، ذلك الطغيان الذي صار اسم فرعون - بغير الحق - في نظر الناس علماً عليه . ولقد شاء الله - مع عزوفه عن أن يسمى فرعوناً بذاته - أن يعينه ويختص واحداً من سائر الفراعين ، ذلكم هو الفرعون الذي ضحبه وخدمه رجل من خاصته هو هامان أو حورمين ، وذلك حين الحديث عمن أرسل إليه موسى بالدعوة وجهراً بالتحدي والتكذيب فحققت عليه الكلمة ، إلا أن يكون مفهوماً متعيناً من سياق الآيات .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب » (غافر ٢٣ - ٢٤)

« وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . (العنكبوت ٣٩ - ٤٠)

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » . (القصص ٨)
 « ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (القصص ٦)

وفي غير ذلك يتعين فرعون بداهة فيما يوجه الله من حديث عنه إلى موسى وقومه أو فيما يجري بين موسى وفرعون من حوار . أما التعميم في أول القصص فينصرف الخبر فيه إلى ما وقع لموسى مع من عاصر من فرعون حكم مصر ، وذلك في قول له تعالى :
 « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلوا عليك من نبأ موسى

وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها
شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان
من المفسدين » (١ - ٤)

وذلك فضلاً عن الحديث عن آل فرعون .

كان فرعون مصر ملكاً قوى النفوذ واسع السلطان ، وصفه الله في
قرآنه العظيم بأنه « فرعون ذو الأوتاد » وهو وصف جمع في إعجاز
معجز روعة البلاغة وغزارة البيان ، وذلك في تصوير قرآني محكم يوحى
في النفس بإحساس الهول والشموخ حين نستحضر صورة الجبل الباذخ
في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً » . (النبأ ٦ - ٧)
ولقد تمكن فرعون فكانت له فيها أوتاد أى أوتاد ، ولئن صح
وهو الأرجح أنه رمسيس الثاني وبنوه ، فلقد كان له من الآثار والمعابد
في أنحاء مصر كلها ما يهول بكثرة وعظمته وشموخه العقول ويحير
الأوهام ، وهى دليل ناصع على قوته وسطوته وبيان ناطق على سلطانه
في جيوش من العمال وفيالق من المقيمين وكتائب من المهندسين ، كانوا
كأنهم جن سليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وصروح
راسيات . ولعل في تلك الآية من سورة ص وأختها في الفجر تنبيهاً إلى
ملك فرعون في مصر وما فيها من آيات العظمة والشموخ .

على أن صورة الوتد من الخيمة قد سيطرت على فكر عرب المفسرين
فقدروا الأوتاد مضارب كثيرة لأجناد له كثيرين ، أو كانت له أوتاد
يلعب بها ، وفسروا كذلك الآية بأنه ذو الملك الثابت وذلك من ثبات
البيت المطنب بالأوتاد وذلك من قول العرب لمن تمكن في أرض إنه
ضرب بها أوتاداً من الخيام .

كان لرمسيس - حقاً - أجناد كثيرون خاض بهم مع المشرق
حرباً عواناً وحافظ بفضلهم على إمبراطورية عظيمة امتدت من الفرات
في أقصى الشمال إلى الشلال الرابع في أقصى الجنوب . ومع ذلك فما بال



(شكل ١٢)

المفسرين يقولون إنه كانت له أوتاد يلعب بها ؟ ! وماذا عسى أن تكون هذه الأوتاد التي يلعب بها فرعون وذكرها الله مرتين — دليلاً على التجبر بين المتجبرين : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد » . (الفجر ٦ - ١٠)

أفلم ينظروا إلى المسلات بأسقات لها طرف حديد ، فإن كان لفرعون من أوتاد يذكرها له القرآن فلتكن تلك المسلات الرائعة تنطلق فارعة في السماء من كتلة واحدة صقيلة من الجرانيت ، وقد تعلو فتجاوز قامتها عشرين قامة من ذلك الصخر الشديد . أو تكن تلك الأعمدة والأساطين صاقات كأنها كثيف الغابات في أروقة المعابد وأبهاؤها ، ومنها — كما في الكرنك — ما نتق في ارتفاعه فاستغلظ فاستوى على سوقه حتى لتقصر العصبية أو البسطة في الجسم باعاً أن تحديق بواحدتها . (شكل ١٢) أو تكن الصروح التي تقوم بين أيدي المعابد قوية راسخة كالجبال . بل لقد عبر القرآن عما اعتاد الفراعين من بناء شامخ الصروح في قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى » (القصص ٣٨)

فأوقد لي يا هامان على الطين !!!

على أن ما عرف عن فراعين مصر وما تشهد به اليوم آثارهم أنهم كانوا ينشئون ما شاءوا من الحجر — وهو كثير وافر يغنيهم عما سواه — إن أرادوا لما ينشئون الدوام والخلود . فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات والقبور ولم يصطنعوا الطين المحروق ، ولغير ذلك كانوا يتخذون اللبن من طين غير محروق ، فكانوا يتخذون منه بيوتهم سواء كانت للعلية والملوك أم للعامة وغمار الناس .

وربما تردد القارئ فما يسمع من قول الله في أمر فرعون أن يوقد

له على الطين ، وقد عرف أن المصريين فيما خلفوا من آثارهم لم يتخذوا
الآجر المحروق في البناء قبل عصر الرومان . ولكن المفسرين يذكرون
في تفسير أمر فرعون إلى هامان أنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه
الصنعة بهذه العبارة ، وقد نقول بعبارة أخرى إن البناء بالآجر المحروق
قد كان يومئذ في طلائع استعماله . وأكبر الظن أن المفسرين - كما بدا
لنا من قبل - قد كانوا يستندون إلى طائفة كانت بين أيديهم من الخبر
الصحيح وإن اختلط كذلك بما لا قيمة له من الأوهام .

ومها يكن من شيء ، فلقد أعثرنا الأحافير على ما يوافق أقوال
المفسرين من حيث البناء بالآجر . عثر عالم الآثار الإنجليزي پترى
على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق ، بنيت به
قبور كما أقيمت به بعض من أسس المنشآت ، وقد كانت هذه
الأمثلة التي عثر عليها من عصر الأسرة التاسعة عشرة ، عصر رمسيس
الثاني ومرنپتاح وسيتى الثاني ، وكان عثوره عليها في نبيشة ودفنة غير بعيد
من عاصمتهم شرقى الدلتا . وقال پترى في ذلك إن حرق اللبن قد
ظل نادراً حتى عصر الرومان^(١) . وهو قول لا يكاد يخالف قول
المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى .
وهو كذلك من قرائن القرآن التي نتخذها مطمئنين في تحديد عصر
الخروج ، وبأنه إذن إنما كان على عصر الأسرة التاسعة عشرة التي
بدأت - كما أثبتت الحفائر - وألمع القرآن - تصطنع في بنائها
الآجر من طين محروق .

وبعد ، فلعل الذى ذكر القرآن في دمار آثار فرعون أن يدل بقوة
التعبير عن قوة ما تناول التدمير . . . روى أن الخليفة المأمون العباسى
لما أقبل على مصر فأقام فيها أياماً لم تعجبه فقال ألا قبح الله فرعون ،

ماذا أعجبه في مصر حيث يقول: « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » * فقال له أحد جلسائه « يا أمير المؤمنين ولقد قال الله تعالى : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ** فإذا كان هذا هو ما بقي مما دمر الله فكيف كانت مصر قبل ذلك ؟

فرعون الخروج

على أن عذاب بني إسرائيل — كما ذكرت التوراة — إنما وقع في عهد فرعون ووقع خروجهم في عهد فرعون من بعده سواء ، ولئن دلت القرائن على أن رمسيس الثاني قد كان فرعون العذاب فقد شاع بين المؤرخين والكتاب وأقروا على ابنه مرنبتاح بواقعة الخروج ، وذلك بحكم خلافته لأبيه أولاً ، ثم بحكم ما عثر عليه من نص يوشك أن يكون أشهر النصوص المصرية القديمة وأوفرها حظاً من عناية المؤرخين ثانياً . ذلكم هو نشيد النصر الذي نقش على لوح يحمل العام الخامس من عهد مرنبتاح ويعرف بلوح إسرائيل ، إذ ورد إسرائيل عليه لأول مرة في التاريخ فكان مرنبتاح بتلك الوثيقة الخطيرة في رأى الكثيرين وإيمانهم الراسخ صاحب الخروج ، ومع ذلك فقد أثار ذلك النص من الشكوك والجدل وانشعاب الآراء ما لم ينته إلى قرار يقين .

نقش ذلك النص في العام الخامس من حكم مرنبتاح ، وذلك في أعقاب النصر الأكبر الذى أحرزه على شعوب البحر المتوسط وقبائل الليبيين ، وكان خاتمة لما أهدق بمصر في عهده من أخطار في الشرق والغرب ، حيث أحس الناس أن قد آن لهم أن يتمتعوا بالسلم بعد الحرب وبالأمن بعد الخوف . وقد أزيح عن كاهلهم بذلك عبء

كأنه جبل من نحاس كما يصف النص في بعض مواضعه ، وهو يشيد
لذلك بقوة مرنبتاح وشدة بأسه وشجاعته ويلهج بما أحرز من ظفر
بالأعداء والعصاة والناثرين ، وهو في أثناء ذلك يحصى من غلبهم من
القبائل والشعوب ومن بينهم إسرائيل فيقول :

الشمس قشعت غيماً كان على مصر
ومكنت الحبيبة أن ترى شعاع الشمس
فأزاحت جبلاً من نحاس عن كاهل الناس
فمنحت الأنفاس للشعب الحبيس .

إنه الوحيد الذي ثبت أفئدة المئات من الألوف
إذ تدخل الأنفاس إلى أنوفهم .

الفرح العظيم حل بمصر
والحبور أنطلق في مدائن الأرض الحبيبة
إذ يتحدثون عن النصر الذي أحرزه مرنبتاح الراضى بالعدل
في تحنو أحبيب بالحاكم المنتصر
وما أعظم الملك في الأرباب
وما أسعده سيداً للحكم
وما أحلى الجلوس والناس يتسامرون
إذ يمشى المرء وسيع الخطى فلا خوف أبداً في قلوب الناس
وقد هجرت القلاع لنفسها
وفتحت الأبواب للرسول
ومتاريس القلاع آمنة في الشمس حتى ينفض الحراس
والمأزوى (الشرطة) ممددون نائمون

والناو والتكتن في المروج كما يشاءون
 وأنعام الحقول تركت تمرح بغير راع
 بل تعبر لج الجعفر
 ولا تنطلق صرخة ما في الليل أن قف
 إذ أتى آت بلغة أجنبي
 بل يغدو الناس ويرحون بالغناء
 فلا صياح للناس كما يكون في الأحران
 وأسست المدائن من جديد
 فحارث حصده سوف يأكله
 فلقد عاد رع إلى مصر
 ذلك الذي نشأ مقدراً عليه حمايتها

الأمراء جاثون يقولون سلام
 ما من أحد يرفع رأسه من بين الأقواس التسعة
 القضاء على تحنو
 ونحيتنا آمنة
 ونهبت كنعان بكل سوء
 وأخذت عسقلان وقبضت جازر
 وجعلت يانوعام كأن لم تكن
 وإسرائيل خربت وانعدمت بذرتها
 وصارت سورية أرملة للأرض الحبيبة
 البلاد كلها مجتمعة في سلام
 وكل من كان في ثورة جعل في الأغلال
 بيد ملك الصعيد والدلتا بان رع حبيب أمون
 مرئيتاح الراضى بالحق

وقد رأت طائفة من المؤرخين من هذا اللوح أن إسرائيل إن كانت قد تعرضت في فلسطين لهزيمة مرنتاج ، فقد اتبغى بالضرورة أن يكونوا خرجوا من مصر واستقروا ، بعد أربعين عاماً من التيه ، في فلسطين في عهد سلف من أسلاف مرنتاج ، لذلك فقد افترضوا تحتسب الثالث ، وأمنحتب الثالث . وآخرون ردوا خروجهم إلى عهد يوعح موسى مع الهكسوس . ولكن طائفة أخرى لا تجد عما ذكر في التوراة من حديث عن مدينة رعيس وبيثوم حولاً ، وتجد في ذلك ركيزة مكينة في نسبة العذاب إلى رمسيس والخروج إلى مرنتاج ، ولذلك فهم يحاولون تفسير ذلك النص بأن مرنتاج وقد أخرج بني إسرائيل من مصر فقد افترض أنه أهلكهم أو أنهم هالكون لا محالة في الصحراء حيث يتعرضون لمذابح قبائل الشاسو^(١) .

ومع ذلك فكيف يتعرضون لمذابح الشاسو ولا تتعرض للخطر قوافل التعدين المصرية .

على أن هناك أموراً فأت المؤرخين فيما استندوا إليه من نسبة الخروج إلى مرنتاج . ذلك أن خروج بني إسرائيل قد شهد نهاية فرعون بقرقه وراءهم على حين عاش مرنتاج خمس سنين آخر بعد موافقه التي سجلها على ذلك اللوح ، وفضلاً عن ذلك فقد قرر المؤرخون وسلموا في أمر بني إسرائيل على غير طبيعة الأشياء أن يكونوا احتملوا الذل والاضطهاد لا يريمون ولا يتحركون أجمعين ، وأقروا بغير جدل أنهم أقاموا برمتهم ما شاء الله في أرض جاسان ثم ارتحلوا برمتهم إلى حيث شاء الله من أرض سيناء ثم فلسطين ، وكانوا فيما يمكن أن يستتبع من سفر الخروج وسفر العدد قرابة الملايين الثلاثة فضلاً عن وفرة وافرة من الماشية والأغنام . وما أظن أو يظن معي مفكر أن يخرج بنو إسرائيل سراً بليل بهذا العدد الضخم من بين المصريين وهم لا يشعرون ، بل يخرجون من العاصمة كما ذكر سفر

الخروج فلا يتصل بفرعون فرارهم إلا وقد رحلوا من رعميس إلى سكوت إلى إيتام في طرف البرية ثم إلى فم الخيروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون ، وقد قدمنا من قبل أنهافت ذلك التقدير ، وما كان لهم أن يشعروا بذلك الرعب حيال جند فرعون وهم بهذه الكثرة . فإذا رجعنا إلى كتابه تعالى - ونحن دائماً إليه راجعون - فقد وصفهم بالقلة في سورة الشعراء فيما روى عن فرعون : « إن هؤلاء لشر ذمة قليلون » .

وأكبر الظن - وتلك طبيعة الأشياء بل طبيعة بني إسرائيل خاصة - أنهم كانوا حيث هم على تخوم مصر الشرقية يتسللون منها منذ اشتدت وطأة الحياة فيها عليهم ، وأنهم ازدادوا تسللاً وفراراً منذ استن فيهم فرعون سنته تلك الرهيبة ، إذ يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، وقد كان موسى نفسه ممن خرج منها فراراً مما قد ينزل به من عقاب . وفيما رويناه من واقعة العبدین الآبقین مثل ناطق على ذلك التسلل الذي حمل السلطات المصرية يومئذ على استنفار شرطتها عليهما وتعقبهما في جد وإصرار ، ولعل السلطات المصرية لم تجد هذا الجلد إلا بعد ازدياد أحداث التسلل والفرار على عهد سبتي الثاني .

وقد كان بنو إسرائيل كما ذكرت التوراة وقرر القرآن حريصين - لولا رفض فرعون - على التحول عن مصر والتحرر مما هم فيه ، خليقين - ما دام فرعون مصرًا على إمساكهم واستعبادهم - بالتفكير في الخلاص سرًا ما سنحت فرص التسلل والفرار ، ولنا في المسلمين الأولين في هجرتهم الأولى إلى الحبشة وتسللهم من مكة إليها مثال وبيان .

وأكبر الظن إذن أن أفواجاً من بني إسرائيل قد تسلت من مصر حيث انساحوا في البوادي من بقاع فلسطين فأقامت طوائف منهم حيث طابت لهم الإقامة قلة لا يقام لها وزن ، وطائفة لا يحسب لها حساب ، وقد عاشوا هناك مع أبناء جلدتهم من الساميين لا يختصون بأرض ولا يمتازون ، أو لا يكادون يمتازون عنهم في خلق ولا خلقية - ولكنهم كانوا

على كل حال يذكرون جدّهم الأعلى ويردون نسبهم إلى إسرائيل ، ولعلمهم بدعوا تسربهم هذا أواخر عهد أخناتون منذ حال وجه الحياة في مصر في أعقاب الصراع الديني العنيف ، وأنهم أقاموا على هذا التسرب الذي بلغ أقصى مداه في عهد رمسيس الثاني وصدراً من عهد مرنپتاح ؛ حتى عرف لهم في فلسطين عدد يحمل اسم إسرائيل ولكنه لم يعمل على أسماء القبائل هناك . إذ كانوا يومئذ قلة مستضعفة لا خطر لها ولا خطر منها إلا ما تشبه الأقليات والطوائف المنعزلة بنفسها من صدورها عن أن تختلط بالشعب الذي تعايشه وتحيا فيه .

فلما اندلعت الثورة في أملاك مصر غربي آسيا وقمعها مرنپتاح إذا بالشعراء من المصريين يتغنون بانتصاره وظفره وإذا ببعض هؤلاء الشعراء حرصاً منه على إجلال فرعون يعدد ما اتصل بعلمه — قل أو جل — من أسماء المدن والقبائل والشعوب ممن خضع للملكه المظفر المغوار ، وكان اسم إسرائيل مما عرف أو سمع هناك فظهر في قصيدته ، فكان ذلك أول ذكر لإسرائيل في التاريخ . وقد تناغم مع إنشاد هذا الشاعر المصري أن من هؤلاء الناس طائفة تعيش في وطنه في أرض جاسان .

غير أن الذي لا شك فيه أن الشاعر قد كان على يقين من أن بني إسرائيل لم يكن لهم يومئذ مكان في الأرض ومن ثم في التاريخ ، فلقد درج المصريون في كتابتهم الهيروغليفية أنهم كانوا يلحقون باللفظ صورة أو علامة تدل على المعنى وتخصصه . وكانوا في ذكر المواضع والشعوب يلحقون بأسمائها رسماً يدل على الأرض السهلة إن كانت مصرية ، أو رسماً يدل على الأرض الجبلية الوعرة — ورمز آخر للأجنبي — لغير المصري ، وفي تلك القصيدة ورد ذكر تحنو وخيتا وورد ذكر كنعان وعسقلان وجزر ويانوعام ثم اسم خارو (سوريا) وألحق بكل منها رسم الأرض الأجنبية الوعرة بغير استثناء . أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذي استثنى من رسم الأرض حيث لا أرض يومئذ لها في فلسطين ، ولا في غير

فلسطين ، بل الحق باسمها رسم رجل وامرأة دلالة على الجمع من الناس ليس غير ، ولا سبيل في هذه القصيدة إلى التشكيك بما قد يقال من احتمال خطأ الكاتب المصري القديم وسهوه^(١) ولا جرم يأتي هذا التشكيك من أستاذ أمريكي جليل يعيش وسط كثرة من يهود فهو يستشعر الحرج بين الحق الأبلج والتعصب الأنحرق . وعندى أن الكاتب المصري قد كان موفقاً واعياً ، فلقد وردت أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية في ذلك النص تسع عشرة مرة لم يغفل رسم الأرض الأجنبية في واحد منها مما سبق اسم إسرائيل أو لحق به ، بل كان من دقته أنه في ذكره اسم الشرطة المصرية وقد كان رجالها يتخذون من نجاة النوبة قد اقتصر مع رسم رمز الناس على رمز يدل على الأجنبي دون رسم الأرض لأنهم في غير أرض لهم .

نخلص من ذلك كله إلى أن لوح إسرائيل إنما دل على طائفة من بني إسرائيل قد كانت في بعض بقاع فلسطين أو عند تخومها حين خروج مرتباح لقمع الثورة هناك ، وأن هؤلاء قد كانوا خرجوا من مصر عن طريق الهجرة أو التسلل ، وأن مرتباح لم يكن إذن صاحب الخروج ، وقد عاش بعد قمع تلك الثورة التي شملت ذلك البطن من إسرائيل أعواماً خمسة ، حيث نعمت مصر على مدى تلك الأعوام بسلام تغنى به الشعراء ، وحيث بلغ من استتباب الأمن على التخوم أن القلاع قد تركت حيث قامت متاريسها في ضوء الشمس ورجال الشرطة ممددون نائمون .

وتدل كذلك على انتهاء حركات التسلل — أو قلتها — فلا حاجة بالعسس إلى الصباح بليل آمرين أن «قف» ، مبلغين عن أجنبي قادم يدير لسانه بلغة أو لهجة أجنبية .

ثم يتأيد ذلك - كذلك بوثيقة من عهد مرنبتاح تدل على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية ، وتدل على ما كان لسلطات الأمن في حكومته من سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو في تلك البقاع ، إذ كتب ضابط في تقرير عنها يقول :

« لقد انتهينا من الإذن لقبائل لشاسو (البدو) من أدوم باجتياز قلعة مرنبتاح التي في ثكو إلى بحيرات بيتوم مرنبتاح التي في ثكو ، وذلك لإعاشتهم وإعاشة قطعانهم بفضل فرعون الشمس الوضاعة لكل أرض ، في العام الثامن في ثالث أيام النسيء يوم مولد ست»^(١) .

وقد امتد العمر بمرنبتاح حتى اكتمل حكمه عشر سنين وقد طعن في السن وتقدمت به الأيام ، إذ بدا من فحص موميائه^(٢) ، تصلب الغضاريف من حنجرتة فإذا هي عظام كلها ، وفي ذلك ما يدل - مع صلعه وما تبقى من بياض شعره الأشيب - على أنه بلغ من الكبر ما يقعد به أو يوشك أن يقعد به عن الخروج في حملات الحرب والقتال . ولئن كان لا يخرج في الحملات الخطيرة التي تتعرض فيها مصر للعدوان الاستيطاني من قبل الغرب فلم يخرج عند هجوم الليبيين في العام الرابع ولا ثبت خروجه في الزحف الأكبر الذي وجهه على مصر في العام التالي ، فأحرى به لو وقع الخروج أواخر حكمه ألا يخرج لإدراك هؤلاء الهاربين ، وهم كما وصف القرآن شرذمة قليدون ، ولذلك فأحرى بحكم السن أن تكون وفاته بحكم الشيخوخة في ختام العمر .

وكذلك فالراجح أن يكون فرعون الخروج شابا أو رجلا مكتمل الصحة موفور النشاط ، وهو ما يتبين من جثة سیتی الثاني بمتحف

(١) Gardiner, op. cit., 76 - 77; Breasted, op. cit., III., §

636 - 638

Elliot Smith, Royal Mummies, p. 69.

(٢)

القاهرة^(١) (شكل ١٠) حيث الموت المفاجئ بغرق أدنى إلى العقل والاقتناع .
ومهما يكن من شيء ، فظاهر من القرآن — والله أعلم — أن مرئيتاح
قد كان أرحم من أبيه بنى إسرائيل وأن سبى الثانى حين ولى العرش
قد تابع ما اتبع أبوه من سياسة السباحة واللين ، وآية ذلك أن موسى
حين جاءه بالبينات إذا بالملأ من حوله يحرضونه على استئناف سياسة جده
فيهم من القتل والتعذيب وأنه أوعدها على التحديد .

« وقال الملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض
ويذكرك وأهلكك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » .
(الأعراف ١٢٧) .

حيث نخرج من ذلك أن حياة موسى قد شهدت عهداً ثلاثة :
١ — كان الأول حين مولده تحت فرعون يضطهد بنى إسرائيل
ويعذبهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم فدفع ذلك بأمه إلى إلقائه
فى اليم .

٢ — وكان الثانى حين بلغ أشده واستوى على عهد بطل فيه ذبح
البنين وخف العذاب وتمتع فيه بنو إسرائيل بقدر من سباحة ولين أغرتهم
بشيء من شجاعة وتبجح . فلم يكن لإسرائيل أن يقتل مع مصرى
فيستنصر عليه موسى فيقتله ثم يعود إلى قتال آخر بعد مقتل الأول إلا فى
ظل سباحة تمتعت بها طائفته وأهن استمراته شيعته . وقد كان محتملاً
أن تتعرض لنقمة فرعون والناس بعد قتل مصرى والشروع فى قتل آخر ،
ومع ذلك فقد بلغت السباحة يومئذ بحيث لم يطلب غير موسى بدم ذلك
القتيل وبما عسى أن يكون فساداً فى الأرض .

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا موسى إن الملأ يأترون
بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين » . (القصص ٢٢٠)

وحسبنا تلك الآية دليلاً عما كان في مصر يومئذ من قوم يعطفون
على موسى ويرجون له النجاة .

٣ - وكان الثالث حين عاد موسى إلى مصر بالرسالة فإذا به يشير
في قوم فرعون مكان العداوة والبغضاء فيحرضون عليهم كما قدمنا
على استئناف ما كان انقطع في بني إسرائيل من التعذيب .

على أن هناك مسألة نعرض لنا قبيل ختام ذلك الحديث في أمر
تعذيب بني إسرائيل وما نفترض من شدته على عهد رمسيس الثاني
ونخفته من بعده . أكان ذلك مرتبطاً بكثرة ما أقام رمسيس من معابد
ومنشآت وقلة ما أقام أخلافه ؟ فإن ما ملأ به رمسيس مصر من أقصاها
إلى أقصاها من معابد وقبور ومدن وقصور ليجل عن الحصر والتقدير .
حيث وجد كما نفهم من سفر الخروج (٥ : ٦ - ١٨) في بني
إسرائيل يداً عاملة وقوة بشرية تحتل عن المصريين الأعمال الدنيا
والأعباء الثقيلة من اقتطاع الحجر وضرب اللبن ونقله إلى موضعه من البناء .

٥

موسى والخضر

ذكر القرآن موضعاً يلتقى فيه - بوعد من الله - موسى والخضر
(عليهما السلام) وصفه بأنه مجمع البحرين في قوله تعالى من سورة
الكهف (آية ٦٠) .

« وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى
حقباً » .

وقد ذكر النسفي والبيضاوي في مجمع البحرين أنه ملتقى بحر فارس
والروم ، وأضاف أبو السعود افتراض طنجة أو مواضع أخرى من أفريقية .
غير أن المأثور من سيرة موسى أنه لم يغادر مصر إلا إلى مدين أولا ثم
غادرها مع بني إسرائيل في خروجهم الذي أعقبه التيه في سيناء
حيث مات موسى من بعد هارون قبيل دخول فلسطين . وأكبر الظن
من ثم أن موسى إنما وعد بقاء الخضر في مصر ، حيث لقيه في بعض
رحلاته شرق الدلتا ، وأن مجمع البحرين لن يبعد عن برزخ السويس
حيث يجتمع المتوسط والأحمر ويوشك أن تجمع بينهما بحيرات المنزلة
والبلاح والبحيرات المرة وبحيرة التمساح ، أو يكون ذلك عند أحد
مصبات النيل .

وأكبر الظن أن موسى إنما تلقى ذلك الوعد وهو في طريقه إلى مصر
في أعقاب الوحي في سيناء ، وكانت قلعة ثارو ، غير بعيد من بحيرة
البلاح محطاً للمسافرين من مصر وإليها ، وأكبر الظن أن موسى وتابعه
قد بلغاه مجمع البحرين في هذا الموضع فهبطا هناك .

« فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرّباً » .
(الكهف ٦١)

ثم عادا فاستأنفا الرحيل .

« فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً » .
(الكهف ٦٢ - ٦٤)

وقد عاد موسى وفتاه إلى حيث كانا قد هبطا من شاطئ البحيرة « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً . قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً . قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا . . . »

(الكهف ٦٥ - ٧١)

كانت رحلة موسى كما هو بين من القرآن برآء، وكان موسى في طريقه إنما يقصد مجمع البحرين هذا ، وأنه بلغه مشياً حتى نسيا حوتهما ، ثم عادا سيراً إليه حيث افتقد الحوت وعرف بضياعه في البحر « فارتدا على آثارهما قصصاً » لما خلفت أقدامهما في الأرض . هناك وجد الحضر عليه السلام ، وهناك انعقد بينهما العهد على الصخرة في سبيل العلم والرشد اللذين يأخذهما موسى عنه ، فانطلقا حيث خلفا مجمع البحرين وراءهما إلى حيث يريدان .

ولا أكاد أشك في أنهما دخلا إلى مصر حيث الملاحة في النيل عماد الحياة في مصر وحيث ينتقل الناس والأنعام والخصيل في النيل بالسفائن فلا غناء عنها للملك ولا لشريف ولا لمالك أرض أو فلاح أجير ، بل لقد كانت حياة السفن هي الفاصل أحياناً بين الحياة والموت أيام

المجاعة، حيث تدعو الحاجة إلى نقل الغلال إلى بلد جائع من بلد بعيد. ولذلك فقد كان احتياج البلاد إلى السفن عظيماً. وكانت الدولة في بعض الأحيان تفرض على الناس إمدادها بما كانت في حاجة إليه من السفن؛ إذا خرج الملك في موكب أو رحلة إلى بعض بقاع ملكه. فكان على السلطات المحلية تدبير كل شيء لتلك الرحلة، بل كان عليها تدبير أمر الرحلة لرسول الملك لا للملك نفسه. وكان الوزير منذ الأسرة الثامنة عشرة مسئولاً عن نظام النقل بأسره في مصر حيث ورد عنه ما نصه: «إنه الذي يمد بالسفن كل من ينبغي إمداده بها». ولقد كان نقص السفن في مصر أو الاضطراب في مسيرها مدعاة إلى ضعف الرقابة على البلاد. وقد أدرك حورمحب ذلك حين تولى السلطة وقد هوت البلاد في حضيض من الفوضى والفساد، فرد الاضطراب وضعف السلطة فيها إلى الإسراف في الاستيلاء على السفن، فكان أن أصدر فيما أصدر من قوانين صارمة قانوناً بعقاب المستغلين لنفوذهم من المتهمين بأخذ السفن لأنفسهم غصباً، بل لقد كانت هذه الآفات الخلقية عميقة الجذور في مصر بحيث اضطرب بطلميوس الأول من بعد حورمحب بألف سنة إلى إصدار قرار بمنع كبار الموظفين من أخذ السفن لأنفسهم غصباً^(١).

دخل الخضر وموسى مصر في ظل تلك النظم والعادات
«حتى إذا ركبنا في السفينة خرقها قال أخرجها لتغرق أهلها لقد
جئت شيئاً إمرأاً» (الكهف ٧١)

ولم تكن رحلة موسى والخضر بالسفينة إلى بعيد، فلم تكن سوى رحلة نيلية ينزلون بعدها في بعض بقاع مصر حيث يواصلون المسير؛ «فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً». قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً.

قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا .
وكان مسيرهما في بلاد عامرة بالقرى والناس .

« فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .
أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » . (الكهف ٧٧ - ٧٩)

وقد بينا ما كانت تلجأ إليه السلطات في مصر من استيلاء على السفن أحياناً ، فهي واقعة أشبه بمصر وأقرب إلى أحوالها ، ولعل فرعون يومئذ قد كان في إحدى جولاته فاقتضى لذلك جمع السفن مما يجرى في النيل .

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأراد ربك أن يبدلهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعاته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً » .

(الكهف ٨٠ - ٨٢)

وبعد فلقد كان للغلامين كنز من تحت الجدار . ونؤثر أن نترك الحديث عن الكنوز في مصر إلى حين .

٦٠

عینی

وقدر الله لعبده ونبيه عيسى بن مريم أن يهبط مصر حين كان في
المهد صبيًا . قال تعالى :

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » هـ
(المؤمنون ٥٠) .

أوى عيسى وأمه إلى ربوة ذات قرار؛ وهى فى تفسير النسفى والبيضاوى
وأبى السعود أرض مرتفعة ذات مستقر من أرض سهلة يستقر عليها
ساكنوها ؛ أو ذات ثمار وماء وزرع ليخلدوا إلى ذلك القرار ، بمعنى أن
ساكنيها إنما يستقرون عليها لما فيها من ثمار . أما المعين فهو الماء الجارى
الظاهر . ولكنهم فى ذات الربوة قد افترضوا جملة فروض لم يغفلوا مصر
فى أى افتراض مما أخرجوا ، فقالوا هى بيت المقدس أو دمشق أو الرملة
أو مصر . ومع ذلك فما نعلم أن عيسى بن مريم وأمه قد أويا إلى دمشق
أو الرملة . أما جلال الدين السيوطى فقد نقل عن السلف ما يفسر
تلك الآية ويؤول الربوة بأنها - مصر ^(١) قال : «أخرج ابن أبى حاتم عن
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى الآية هى مصر ، قال وليس الرى إلا بمصر
والماء حين يرسل يكون الربى عليها أى القرى . ولولا الربى لغرقت القرى ،
وأخرج ابن المنذر فى تفسيره عن وهب ابن منبه فى قوله إلى ربوة ذات
قرار ومعين قال مصر ، وأخرج ابن عساكر فى تاريخ دمشق من طريق

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٧ هـ)

جرير عن الضحاك ابن عباس أن عيسى كان يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى ففهمته به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه فأوحى الله إليها أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك قوله تعالى وآويناها إلى ربوة قال يعنى أرض مصر .

ولعل فيما ذكر من وصف الربوة بكونها ذات قرار ومعين ما يوحى بامتيازها بالمياه الجارية وهو ما يرجح مصر في ذلك المقام . وكان الماء حين يرسل أوان الفيضان يكون الربى عليها أى القرى وذلك في الزمان القديم .
وفى ذلك حديث تفصله من بعد ذلك تفصيلاً :

٧

الأرض

لم تحظ أرض من القرآن بوصف ولا تكريم بمثل ما حظيت مصر
من وصف وتكريم . إذ أنزل الله على نبيه ﷺ من محكم آياته ﷻ صورة
رائعة مشرقة عما حببت به ﷻ من فضل الله وما أوتيت من حظ عظيم :
ويصور مع ذلك وصفها وسماها التي برأها عليها وما أخرج فيها من نبات
شتى وما وطن في أرضها من كنوز . وقد جاء هذا التصوير صريحاً
مباشراً من كلام الله عز وجل أوجارياً على لسان يوسف أولسان فرعون ،
« ونادي فرعون . في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه
الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » : (الزخرف ٥١) . وقد دل
القرآن بتلك الآية وما تشابه منها على ما أضل فرعون وأغواه فلم ير
فيما وعده موسى من فردوس الآخرة مزيداً على ما لديه من ملك فأرسل
تساؤله متعجباً مستنكراً عما يبشر به من جنات تجري من تحتها
الأنهار وعنده مصر جنات تجري من تحتها الأنهار . ومن رائق الإعجاز
في تلك الآية ما تنطوي عليه وتكنى عنه من إيمان فرعون والمصريين معه
بأن وطنهم صورة مثلى للفردوس لا يفوقه فردوس سواه . وهو واقع تاريخي
ثابت تبرهنه آثارهم وما تركوا فيها من متون ونصوص ورسوم .

وكأنما نظر فرعون وهو في مقره في بر رعمسى فرأى النيل ينطلق من
منابعه البعيدة ، حتى إذا شارف البحر إذا به يتفرع سبعة أفرع — لم
يبق منها اليوم إلا فرعان — تجري من تحته حيث يقيم .

ثم هو يرجع البصر كرتين فيشهد أينما حل من ملكه جنات ألفافاً ،
ويرى فيها حباً ، وعنباً ، وقضبياً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ،
وفاكهة وأباً أجل : جنات تجري من تحتها الأنهار .

وهي كذلك كما وصفها الله في محكم آياته وكريم قرآنه، بل حسبها من وصف الله أن يكون المقام فيها نعمة للمقيمين والخروج منها نقمة على الخارجين . ألم يعاقب الله فرعون وملأه أن أخرجهم منها في قوله تعالى :

« فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . »
(الشعراء ٥٨) وفي قوله عز وجل مؤكداً :

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . » (الدخان ٢٥ - ٢٧)

وقد ذكر السيوطي - في حسن المحاضرة - عن الكندي قوله في هاتين الآيتين : لا يعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله عليه في القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر . ولا غرو تكون بما وصفها الخالق العليم مثابة للناس وأمناء، وتكون المحاضرة وما سواها بدوياً . ألم يعلن ذلك في قرآنه على لسان يوسف فيما روى عن يعقوب وبنيه :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائى من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو . » (يوسف ٩٩ - ١٠٠) حيث أووا كما أوى عيسى بن مريم وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين . وذلك وصف لما كانت عليه مصر حتى عهد غير بعيد قبل إنشاء السدود . إذ كان النيل إذا أقبل بفيضه في الصيف امتد فغمر الأرض بمائه فظلت تحت الغمر أمداً يمتد

ربيع العام ، ولذلك فقد عمد المصريون إلى إقامة بيوتهم من فوق رواب
تعلو على الماء . ولقد شهدها عمرو بن العاص حين فتحها فوصفها فأحسن
وصفها قال : « مصر تربة غبراء وشجرة خضراء ، يكتنفها جبل أغبر
ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، يجري
بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ويكثر
فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا أصلخ عجاجه
وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض
إلا في صغار المركب وخفاف القوارب ، وزوارق النهر كأنهن في الخايل
ورق الأصائل ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ في
جريته وطما في درته فعند ذلك . . . يحرثون بطون الأرض ويبذرون فيها
الحب ، يرجون بذلك الماء من الرب . . . فإذا أحرق الرزق وأشرق ،
سقاء الندى وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين درة بيضاء
إذا هي زبرجدة خضراء ، ثم إذا هي ديباجة رقشاء ثم إذا هي عنبرة
سوداء فتبارك الله الفعال لما يشاء » .

وفيما عدد القرآن من خصال مصر ما يستحق النظر بشيء من تفصيل

جنات

كانت حياة المصري منذ مطلع الصبح من تاريخه صراعاً مريراً
وكفاحاً متصلاً بين الرى والجفاف وبين الحصب والجذب وبين الأرض
المثمرة والمفاوز القاحلة ، أو بين ما كان هو يسميه السوداء والحمراء .
كان يبذل الضنى والعرق في سبيل استخلاص الأرض من الصحراء
فيعزق أراضي الغمر حيث يترسب الطمي الدسم لينقله إلى حيث يستنبت
ما يشاء . وكان الحزن يبلغ أقصاه من نفسه أن يرى علوان الصحراء على
أرضه وزحف الرمال عليها . وكانت الحدايق والحنان أثيرة لديه محبة
إليه ، اختلطت بحسه وفكره وشعوره منذ نشأ على ضفاف النيل ، وكان



(۱۲ کل)

عامراً يومئذ من آثار فيضه كل عام بالمنافع والبغياض والغدران ، حيث تنبت الآجام والأحراج من البردى والسوسن والبوص واليراع وحيث تعيش ألوان من الأسماك وتؤمها طوائف من الحيوان وأمم من الطير . وكان المصريون يؤمنون تلك الأصقاع طلباً للصيد والقنص ، كان بالنسبة للأدنين من الناس رزقاً يطلبونه ويسعون إليه ، وكان لأهل الترف واليسار رياضة وتسلية يؤثرونها ويقبلون عليها ، فكان الرجل يخرج في أسرته من زوجه وبنيه يطلبون التزهة والمتعة في زورق خفيف من البردى يسري بهم على صفحة الماء الهادئ الرقاق ، بين سيقان البردى وأوراق البشنين وزهور السوسن . ولقد بلغت هذه الطبيعة الحلوة الجميلة من نفسه أن تخيل الفردوس في الآخرة صورة من تلك البيئة التي عاش فيها وأحبها ونعم بها ، كما حرص على تصويرها في بيته وقبره (شكل ١٣) .

كذلك وقر في نفسه حب الزهر والإحساس بجماله وفتته ، فكان لهم زينة في الموائد والأعياد ويتخلدون منه هدية يقدمها بعضهم إلى بعض ، وقرباناً يقربون منه إلى الأرباب والأعزة من الأموات .

ولذلك فقد حرص المصري القديم فضلاً عن ذلك على غرس الأشجار ورعاية الحدائق أينما يولى وحيثما يقيم . فقد تعهد لها في المعابد حيث يتجه إلى ربه مصلياً متعبداً ، وتعهد لها في سكنه مستروحاً متمتعاً ، وتعهد لها في الجبانة مهيباً لروحه السعادة والنعم ، ولقد انتهى إلينا من الخبر عن حاتشبسوت أنها حرصت على إقامة بستان للإله بين يدي معبدها في الدير البحري بالأقصر ، ولكنها لم تشأ أن تغرس في ساحته من أشجار مصر التي عهد الناس وإنما بعثت إلى بلاد بونت ، أو بلاد الآلهة كما سميتها في بعض حديثها ، تنقل أشجار المر العبق إليه ، وذلك حتى تقيم في معبده أرضاً كأرض بونت .

ولم يكن حرص المصري على إقامة الحدائق في داره بأقل من حرصه على إقامتها في دار الآلهة . فلا تكاد تخلو لشريف أو أمير دار من حديقة

فسيحة تتوسطها بحيرة صغيرة يقيم من حولها الشجر . الباسق والأليك الوارف ، وكان الشريف يجد في حديقته تلك الراحة والروح والأمن والسكن في ظل الدوح ، أو في ظل عريشه يقيمها عند بحيرته .

كانت الحديقة في المنزل عنصراً اعتاده المصريون في حياتهم بحيث أصبحت الحدائق في آدابهم وقصصهم من المؤلف المذكور في كل أثر أدبي ، من قصة وأغنية ، حيث حفلت قصائد الغزل بذكر الحدائق والغدران . ولقد حرص الملوك إذا أنشأوا مدينة أو عاصمة جديدة على أن يجعلوا للحدائق فيها النصيب الأوفى حيث البحيرات والزهور . كذلك فعل أختاتون في عاصمته الجديدة أختاتون عند تل العمارنة ، وكذلك فعل رمسيس في بر رعمتي عاصمته الجديدة التي أنشأها شرق الدلتا حيث ربي موسى وليداً ولبت فيها من عمره سنين ، ومنها خرج فرعون وراه وكان من المخرقين . ولذلك فخلق بنا أن نقرأ ما حفظ لنا من وصفها الذي بعث به أحد كتاب فرعون إلى زميل له فيقول :

« لقد بلغت بر رعمتي حبيب آمون فوجدتها أروع ما تكون ازدهاراً . وهي عاصمة أنيقة لا مثيل لها على نمط طيبة . إن بساطتها حافلة بكل شيء طيب ، وتتدفق عليها الأطعمة كل يوم كما تمتلئ مياهها بالأسماك وبركها بالطيور ، وإن أهراءها المليئة بالشعير والقمح الذي يكاد يبلغ السماء ، وفيها حدائق الرمان والتفاح والزيتون والتين ، أما النبيذ فهو أحلى من العسل ، وفيها السمك الأحمر في القنوات . . . إن شباب عظيمة الانتصارات في عيد كل يوم ، والزيت والطيب على رؤوسهم وهم يقفون بأبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور »^(١) .

ولقد كانت الجنان والبساتين كذلك عامرة بالفاكهة والثمار من الكروم والتمر والبطيخ والشمام والخروب والنبق والحمير والتين ، ثم استنبتوا من بعد

A. Gardiner, Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles . (١)

ذلك ما عرفوه منذ أيام الهكسوس من الرمان والتفاح والزيتون . ولقد أشار القرآن إلى العنب فيما ورد عن صاحب بسجن يوسف في قوله : « إني أراي أعصر خمراً » ، ولقد نبتت الكروم وفيرة في أنحاء كثيرة من مصر . كما جاءنا من الأنباء خاصة عن كروم الواحات منذ طلائع التاريخ المصري وقد بلغ من وفرتها ومنزلتها من إنتاج الواحة على عهد تحتمس الثالث أن النبيذ كان من جملة ما يؤدي أمراؤها من ضريبة إلى الملك .

أما الزيتون الذي عرفه المصريون باسمه هذا فله في القرآن حديث أى حديث .

فهو الشجرة التى باركها الله وضرب بها لنوره الأمثال : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاج كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار . نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » (النور ٣٥) .

شجرة مباركة زيتونة أين تكون .
لا شرقية ولا غربية فلا هى إذن فى الشرق البعيد ولا فى الغرب البعيد ، ولقد نبت الزيتون وينبت فى بقاع كثيرة من أرض الله .
ولكن هناك شجرة أخرى تجود فى بقعة خصها الله بذاتها من أرض الله « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار » .

وما حاجتنا إلى الأحجية والاستقصاء وقد أعلنها الله صريحة فى قسمه العظيم :

« والتين والزيتون وطور سينين » . (التين ١ ، ٢) .
وقال :

« وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكنناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنهأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة

ومنها تأكلون ، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للآكلين .
(المؤمنون ١٨ - ٢٠) .

طور سينين أو طور سيناء ، باب مصر ومدخلها الشرقي منذ العصور أقدم العصور هي بقعة من مصر وجزء منها ، سيناء وهي كذلك جزء من بقعة كانت منزل الوحي ومهبط الرسالات وتضمها مصر مرايع العلم وقبلة الأنبياء .

وزروع

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم .
(البقرة ٦١) .

ولو قد نظرنا في تلك الحاصلات لأدركنا أنها من زروع الشتاء تبذر في أعقاب انحسار فيض النيل في شهر هاتور المصري أو نوفمبر الإفرنجي ، وقد جاد في مصر يومئذ من البقل الفول والحمص والبازلاء والكراث ، وذلك فضلاً عن الخس الذي كان من أحب الطعام إلى المصريين . وعن الفول في مصر حدث ولا حرج فهو فيها طعام عريق . إذ كانوا - وما زالوا - يأكلونه أطباقاً وألواناً شتى ، أشهرها ما هو معروف حتى يومنا هذا - على الأرجح - باسمه القديم كما يقال ، فالمدمس من لفظ يعني الكمور والبصارة من بسورو وهو الفول المطبوخ^(١) ، كما اتخذوا من عجائنه طعاماً لعله يشبه الطعمية^(٢) . فن نافلة القول إذن - وقد تأصل من نفوس المصريين تلك القرون أن نتحدث عن مدى حبهم له وإقبالهم عليه وعن انتقال ذلك الحب إلى بني إسرائيل .

(١) G. Sobhy, Common words in spoken Arabic of Egypt

of Greek or Coptic Origin, (Cairo 1950), p. 11.

(٢) سليم حسن : مصر القديمة الجزء الرابع (١٩٤٨) ص ٦٠٥

وكذلك كانت التثاء أو الخيار إليهم ، وكانوا يقربونها على موائد الأعياد ويقدمونها قرباناً للأعزة من الأقرباء المتوفين (شكل ١٤) ، وفي قصة من عيون الأدب المصري روى بحار حطمت الأنواء سفينته أن الأمواج حملته إلى جزيرة مقدسة وجد فيها من النما كهة والأعنان والتين ومن الخيرات ما أعجبه وأرضاه وكان منها التثاء الذي عرف في المصرية باسم شسبت .

أما النوم فهي الحنطة أو هي الثوم على تعدد في التفسير . وكان الثوم من الحاصلات المتوفرة في مصر ، وقد وجدت في مقابر طيبة طائفة من حزم الثوم الذي عرف في مصر باسم خيجان ، وكانوا أحياناً يطلقون عليه اسم البصل حج . وأما البصل فكان - كما هو اليوم - من أطعمة الإنملاح اليومية وأدناها إلى نفسه كما كان من ألوان القربان . وكان العدس الذي عرفوه باسم عارشين من أحب الأطعمة إليهم - وما زال « العدس والبصل » عندنا من أشهى أطعمتنا . وكانوا يتخيلون الفردوس في الآخرة عامرة بالحنطة والعدس الذي يرتفع نباته فيما قدروا عشرة أذرع في أرض الجنة .

وحسبنا من دليل على ما حظيت به تلك الأرزاق من الحب والتفضيل أن بني إسرائيل بحكم إقامتهم وما اعتادوا من طعامها قد اختاروها دون سواها من خيرات مصر ، وقد قدمنا من سفر العدد من العهد القديم ، (١) ما صور حينئذ إليهم ، بل كادوا يضعونها مع الحرية والخلاص في الميزان .

ولم يكن ذلك كل ما كانت تنتج مصر على عصر الفراعين ، فإذا كانوا أنتجوا ما يكفيهم من الغذاء فقد أنتجوا كذلك سرايلهم من نبات الكتان الذي كانوا يزرعون ثم ينسجون ، وكانوا يتخذون منه ثياباً رقيقة وأفواً شفيفة كانت موضع إعجاب الناس أجمعين (٢) .

وفضلاً عن ذلك فقد كفتهم أرضهم ما كان للحضارة والفكر المصري

(١) انظر صفحة ١٢١

(٢) كتان مطرز من مصر هو شراعك (سفر حزقيال ٢٧ : ٧)



والبشرى أكبر معين ، إذ نبت فيها البردى والبوص ومنهما اتخذوا القرطاس والقلم واتخذهم منهم الشعوب من حولهم إذ حملهم إليهم من مصر الفينيقيون .

وعيون

عيون الماء مصادرها سواء كانت من الآبار أو البحارى من الأنهار . وقد ورد في الذكر قوله تعالى في سورة الغاشية : « فيها عين جارية » ، وفسر النسفي « العيون » بالأنهار الجارية . ولا حاجة بنا عندئذ إلى الإسهاب فيما تمتعت به مصر من « العيون » ففيها أعظم العيون وأغزر العيون ، فيها النيل العظيم وهو اليم كما ذكر في القرآن ، وذلك أنه أقبل من قلب القارة السوداء ليدخل مصر فوق صخور الشلال الثانى ، ثم صخور الشلال الأول عارماً جياشاً ، حتى لقد خيل إلى المصريين في بعض أساطيرهم أنه إنما ينبع من كهفين في تلك البقاع في جزيرة الفنتين أسموها قرقي ، ثم نراه من بعد ذلك يجرى سهلاً ليناً حتى إذا بلغ رأس الدلتا إذا به ينساب كالمروحة أو يتفرع كالشجرة سبعة أفرع لم يبق منها اليوم إلا فرعان هما دمياط ورشيد ، وكان يقبل بفيضه كل عام فيغمر الأرض عن يمين وشمال ، فإذا بلغ حدته وطما في شدته نكص على عقبه مخلفاً وراءه كثيراً من المنافع والغياض والغدران فيكون فصل البذر وأوان الإنبات .

ومع ذلك فقد كان لاختيار لفظ العيون في القرآن مقصده ومعناه ، وذلك لأن في اللفظ من الاتساع والشمول ما يجمع على سواء بين المياه الجارية في الأنهار والمياه النابعة في الآبار ، وقد حببت مصر من هذا وذاك أجمعين ، فكان اللفظ من جوامع الكلم القرآنى الذى أوفى على بلاغة الإعجاز بما يسوق من لفظ جامع دقيق عن تقدير وحسبان . فإن النيل ليجرى وسط صحراء شاسعة مرهقة عن يمين وشمال . ولقد اندفع المصرى منذ أقدم العصور يسلك فجاج الصحراء ويطوى رمالها العطشى بحثاً عما يقيم به حياته من المواد الغفل من المعادن والصخور أو طلباً للبيع والشراء مما

وراءها من الأقاليم والبلدان ، وكان إحرازهم للنجاح بمقدار ما يجدون إليها في طريقهم من مصادر الماء . لذلك فقد حرص فراعين مصر على توفير الماء على طريق القوافل وفي بقاع التعدين في الصحراء ، وذلك بحفر الآبار وتلمس العيون ، فلقد كتب منتوحتب الثالث من الأسرة الحادية عشرة أنه احتفر أربع عشرة بئراً كبيرة في وادي الحمامات ، كما روى منتوحتب الرابع عن عثوره على بئر حافلة هناك ، ومن أخبار سبتي الأول عاهل الأسرة التاسعة عشرة أنه خرج إلى وادي عباد بالصحراء الشرقية ليتفقد الأرض حيث يبني معبداً ويحتفر بئراً تكون غوثاً للمرهق ويرداً لفؤاده المتأجج في حمارة القيظ . هنالك أمر عمال الحفر فاحتفروا في الجبل بئراً نبط منها الماء الغزير ، كأنها كهف قرني في الفتين ، حيث يتفجر — كما تخيلوا — النيل . وبذلك عاد الطريق سهلاً .

ومن أخبار ولده رمسيس الثاني أن حاكم النوبة العليا — وكان كذلك مشرفاً على وادي العلاقي — شكى قلة الماء على طريق المناجم وما يتعرض له الناس من الهلاك عطشاً في تلك البقاع ذات الذهب الوفير ، وما يتهدد تلك الصناعة من انقطاع . فكان أن جمع الملك الأمراء فشاورهم في الأمر ثم أمر بحفر بئر هناك نبط الماء منها على عمق اثنتي عشرة ذراعاً ، وكان رجال أبيه قد حاولوا ذلك من قبل فأخطأوا الماء حتى عمق مائة وعشرين .

وكان الفراعين فضلاً عن ذلك يعينون على الآبار والعيون الحرس من الرماة والمفتشين يصونونها ويردون عنها العابثين والمعتدين ، ويحفظون عليها نظافتها وصفاءها ، سواء كان ذلك في سيناء أو في واحات الصحراء الغربية . وكانت الواحات محاطة للقوافل حيث تجتمع الينابيع والعيون ، وكانت الواحات الخارجية أكبرها وأهمها جميعاً ، وقد توفر فيها من الماء ما مكن فيها من إنبات الأعناب والكروم كما قدمنا منذ طلائع التاريخ المصري القديم .

وكان الملوك فضلاً عن ذلك حريصين منذ أقدم العصور على مشروعات الري في أنحاء البلاد ، حريصين على إيصال الماء إلى حيث لا يصل النيل .

ومن أشهر وثائق تاريخ مصر العتيق منظر يصور احتفال البلاد بشق القنوات حيث ظهر الملك العزب الذى حكم مصر من قبل مينا مؤسس الأسرة الأولى ممسكاً بالفأس وهو يهيم بالضربة الأولى فى القناة ، كذلك كان المشرف على القناة « عيج مر » من الوظائف والألقاب الكبرى فى الدولة القديمة ، ولعل أشهر ما نعرف من مشروعات الري ما كان أقامه أمنمحات الثالث عاهل الأسرة الثانية عشرة من خزان الفيوم لتوفير الري والزرع فى منخفض الفيوم .

وكنوز

وفسر النسخ الكنوز فى تلك الآية بأنها الأموال الظاهرة من الذهب والفضة . قال وسماها - أى القرآن - كنوزاً لأنهم لا ينفقون منها فى طاعة الله . وجاء فى المعجمات عن الكنوز أنها المال المدفون ، وما أكثر ما كان فى مصر القديمة من أموال ظاهرة من ذهب وفضة فضلاً عن المال المدفون . وللمال المدفون فى مصر حديث ذو شجون .

على أننا لو أخذنا اللفظ بمعناه الواسع لشمطنا بذلك مناجم الثروة المعدنية فى مظاهرها فى الأرض . وكانت هى مصادر الأموال الظاهرة إلا قليلاً مما يبيعون . ولقد كانت أرض مصر وما زالت تدخر من ألوان الحجر وأنحلاط المعادن ما لا يكاد يقع تحت حصر ، ومن كنوز الحجر نصف الكريمة والمعدن الثمين الذى حبيت بوفرة منه وبسطة فيه ما عرف لها واشتهرت به فى أقطار الشرق القديم .

وكان المصريون قد خرجوا منذ فجر التاريخ البعيد فى طلب الذهب إلى الصحراء الشرقية حيث تقع مناجمه الوفيرة عند الفواخير فيما يلى قفط من وادى الحمامات ، وعند أم الروس عند ساحل البحر الأحمر ، ولقد كان فيما كشف من عصر فجر التاريخ من خرزات من ذهب مسمط فى نقادة وأخرى من رقائقه فى المحاسنة دليل على عراقه فى استخراجة وخبرة فى صياغته

وصناعته . كما كان في اسم مدينة أمبوس القديم (قرب قرية البلاص قبالة قفط) دليل آخر على ما تدفق عليها من الذهب الذي خلع عليها اسم نبتى بمعنى الذهبية .

ومن صحراء النوبة الشرقية كذلك استخرج المصريون الذهب من بقعة من وادى العلاقى سميت يومئذ باسم إكيتا . ولذلك كله فقد حرص الفراعين على بسط النفوذ المصرى وإقرار الأمن فى النوبة بأسرها ، فقد تحدث ملوك الأسرة الحادية عشرة عما بذلوا فى هذه السبيل حيث عينوا رؤساء التراجمة لحسن التفاهم مع الناس هناك . وتابع ملوك الأسرة الثانية عشرة حملاتهم التأديبية على تلك البقاع حيث وضعوا النظم وأقاموا عند الشلال الثانى الحصون تأميناً لها من الاضطرابات والغارات ، وكان خط الدفاع الأخير هناك فى البجة واليفانتين ، بل لقد كان سنوسرت الثالث عنيفاً فى حملته على الثائرين بحكم إغراء الذهب والحرص على تأمين موارد فى تلك البقاع .

ولم يفتأ الفراعين يرساون البعوث ويوجهون الحملات والقوافل بحثاً عن الذهب فى مظانه من أرض مصر . فإذا عثروا عليه وبشر بمحصول وافر عمدوا إلى إقامة المحاط وتيسير الطرق إليها بما يحتضرون عندها وفى طريقها من آبار وما ينشئون عندها من معبد يكون مركز المعسكر العمالى ، وبما يرسمون لهذا كله من خرائط تحدد مواقعها وتبين معالمها ومسالكها ، ولقد حفظت لنا على بردية بمتحف تورين الآن خريطة تصور منطقة الفواخير بمناجمها وطرقها التى يؤدى إليها وادى الحمامات وما يخرج منه بعد ذلك من طريق إلى البحر الأحمر ، وهى فضلاً عما تبين من بئر لستى الأول و « جبال يخرج منها الذهب » وطريقين يؤديان إلى البحر الأحمر ومعبد لأمون فى مركز المعسكر العمالى فهى تبين على مسافة من المعسكر « جبال حجر بخن » المحبوب الأخضر من اردواز وادى الحمامات (شكل ١٥) .

وكان سبتى الأول من أحرص فراعين مصر على تعدين الذهب وزيادة الإنتاج منه ، وقد تقدم بنا كيف خرج إلى الصحراء الشرقية حتى منطقة

الجبال يتفقد مناجم الذهب ومواطن الماء على الطريق ، فساءه ما رأى من انعدام الماء الذى يهدد المسافر بالهلاك ويحول دون ما تردد فى خلوده من عزم على استغلال تلك البقعة التى يتوقع الذهب منها ، ثم مضى يتفقد المكان بحثاً عن أصحاب البقاع التى يحتفر بئراً فيها ، فكان أن وفقه الله فيما أمر من احتفار بئر فى الجبل وإقامة معبد ومحلة يستريح فيها الناس ، وقد أسفر ذلك عن إقامة معبد الكنائس فى وادى عباد فيما يلى إدفو على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً فى قلب الصحراء ، وتحدث ابنه رمسيس الثانى عما بذل جرياً على سياسة أبيه فى هذا السبيل ، قال إنه بلغه وهو يحصى مصادر الذهب ويضع التدابير لحفر الآبار حيث يشح الماء أن الطريق إلى إكيتا مع غناها بالذهب ووفرته خال من الماء ، وأن القوافل إليها لا تعود إلا بنصف رجالها لما يتعرضون له من العطش المبير ، وأنه لم يكذب يبلغه ذلك حتى استدعى أمراء البلاط يشاورهم فى الأمر حيث قدم حاكم النوبة تقريره عما يعوق تعدين الذهب من ندرة الماء وما كان من جهود فاشلة بذلت من قبل على عهد أبيه . وقد أقر رمسيس لحاكم النوبة بما رأى من أمله فى انبجاس الماء ببذل مزيد من الجهد فحالفه التوفيق .

ومهما يكن من شيء ، فلقد توفر الذهب فى مصر وزادت بفضله ثروتها ، إذ يدلنا ما ذكر فى جوليات تحتس الثالث أن مناجم النوبة السفلى وحدها قد كانت تغل على البلاد ما يقدر فى المتوسط بمائتين وسبعة عشر كيلوجراماً من الذهب كل عام . ولقد مكن الذهب للمصريين كثيراً من شؤون الحياة . إذ استطاعوا به فى التجارة والاقتصاد شراء ما عز فى بلادهم واضطروا إلى استيراده مما حولهم من الأقم والأقطار ، فتمتعت مصر بفضله بالرفاهية وخفض العيش ، بل لقد تمتع كثير مما وقع تحت حمايتها من ولايات آسيا بمثل رخائها ورفاهيتها بفضل ما تنفق فيها من أموال . وكان ميناء جبيل مثلاً حياً ناصعاً لذلك ، يدل عليه ما عثر عليه فى مقابر أمرائها من حلى الذهب وأوعية السبج ذات الحواف الذهبية ، وكانت من



(نکل ۱۰)

هدايا فرعون للأمير حين تقليده منصبه هناك . وكذلك أسلحة صنعت في جبيل على الطراز المصرى عليها نصوص . مصرية .

كذلك استطاع المصريون بالذهب أن يحرزوا من النفوذ والمنزلة السياسية والسلطان ما لا تكاد الجيوش المحاربة تحرزها بالغارة والعدوان . فامتد بفضلهم نفوذهم حيث لم تستطع الجيوش الوصول فيما وراء مناطق نفوذهم الطبيعية مما جاور مصر من البلاد ، فكان أن تولى الذهب مكان الجيش سبيل السياسة وإحراز النفوذ . وأصبح المصريون يشترطون به الحلفاء في آسيا منذ عهد تحتتمس الرابع وإن فشلت تلك السياسة أواخر عهد ابنه أمنحتب الثالث ، وذلك لما أبداه الأمراء من جيران مصر من جشع تحت ضغط الغزو الحيثي من ناحية ، ولما كان من سياسة أخناتون وتخاذله عن نصرته حلفاء مصر هناك من ناحية أخرى . بمعنى أن سياسة الذهب وحدها خليقة أن تفشل إن لم تكن وراءه قوة تسنده ، وأن الإغراء والإرهاب لا ينفصلان في السياسة أبداً . ومع ذلك فقد كانت خزائن مصر يومئذ تمتلئ بالذهب ورغم تسرب الفساد وسوء الإدارة إلى حكومة أخناتون ، حيث ذاعت شهرة مصر بأنها أغنى دولة في الشرق القديم .

ولقد حفظت لنا من رسائل ملوك ميتانى وأشور وبابل على عهد أمنحتب الثالث وابنه أخناتون أطرافاً مما كانوا يكتبون طلباً للذهب من مصر ، بل استجداءه منها . من ذلك ما كتبه توشراتا ملك ميتانى إلى زوج ابنته أمنحتب الثالث يقول :

« أخى أرجو أن ترسل ذهباً بكميات عظيمة جداً وبقدر لا يحصى ، أرجو أن يرسل أخى ذلك وأن يرسل من الذهب أكثر مما حصل عليه أبى ، أليس الذهب فى بلاد أخى كالتراب كثرة . »

كذلك ضربوا فى بطاح بلادهم ووديانها من النوبة إلى الصحراء الشرقية يطلبون فضلاً عن الذهب فنوناً من الأحجار نصف الكريمة وألواناً من الصخر الجميل ، حيث استخرجوا منها الزبرجد والجمشت والعقيق واليشب

والمرور والزجاج الصخرى وأحجاراً خلّبت بألوانها وصلابتها عقولهم منذ أقدم العصور . فاتخذوا منها كثيراً من أعمال الصناعة وآيات الفن ، وكان يعجبهم منها بخاصة نوع من اردواز ضارب إلى الخضرة يكاد من صقله يضئ كالمرآة ، وذلك فضلاً عن الألباستر وصخور الجرانيت الأسود والأحمر والديوريت المتين . وكان وادى الحمامات فى الصحراء الشرقية من أهم سبلهم إلى حيث يستخرجون من ذلك ما يشاءون ، وقد كان يغرى بسلوكه والرحلة إليه ما يمتاز به عن سائر الوديان من كثرة يخفيها فى حناياه من البقاع الخضراء والعيون .

وكانت سيناء كذلك مستودعاً غنياً بالنحاس ، ومن كريم الحجر الفيروزى بنوع خاص . وكانت لذلك ميداناً لنشاط اقتصادى خصيب حرص ملوك مصر منذ طلائع الأسرة الأولى على رعايته وحمايته ، حيث تكثر مناجم الفيروزى فى وادى مغارة وسرابة الحادم ، وحيث أقيم معبد للآلهة حتحور ربة الفيروزى منذ عصر الدولة الوسطى التى عملت على استغلال تلك المنطقة بانتظام كبير . وما زالت تلك البقاع من سيناء تحفظ على صخورها آلافاً من نقوش المصريين ممن كانوا فى تلك البقاع عاملين .

أما المال المدفون فإن فى نظرة واحدة فيما تحفل به متاحف الأرض اليوم من آثار مصر . وفى كلمة يسيرة عنها الكفاية وفوق الكفاية . فلقد عثر على أكثر التحف فى القبور ، وكان المصريون يكتزونها للحياة الأخرى ويشيعونها مع المتوفى ذخيرة له ليوم البعث والنشور . وما زالت كنوز توت عنخ آمون تروعننا وتروع العالم كله بما فيها من أثاث ومتاع وما تحفل به من الحلى والذهب ، ومع ذلك فلم يكن توت عنخ آمون هذا من عظام الملوك ولا أشباه عظامهم ، ولا كانت مصر على عهده تتمتع بمثل ما كانت تتمتع به على عهد أسلافه من أمثال الملكة حتشبسوت وتحتمس الثالث القائد المغوار أو أمنحتب الثالث ، من القوة والثروة والاستقرار . أوفى عهد أخلافه من أمثال

سبى الأول ورمسيس الثانى . لم تتمتع مصر بشيء من هذا على عهده ، بل كان فى حدثنا لم يحكم سوى تسع سنين كانت مليئة بالاضطراب السياسى والاجتماعى ، فإذا كان الذى تراه لتوت عنخ آمون بهذا القدر على صغر قبره وبساطة حليته ، فإذا عسانا أن نجد لو كانت سلمت من النهب والسلب قبور من ذكرنا من الملوك ، ومنها ما بلغ فى امتداده واتساعه تحت الأرض مبلغاً عظيماً ، وذلك مع ما يدل عليه من أئيق حليته ووسامة زخرفه أن كان خليقاً أن نجد فيه بالنسبة إلى ودائع توت عنخ آمون ما يبهر العيون كثرة وثراء . ولقد عثر لغيره على أمثلة متفرقة عبر عصور مصر القديمة بما يشهد لها من غير شك أنها ذات مال وكنوز ، فمنها ما هو من قبر جر عاهل الأسرة الأولى ، ومنها ما هو لحتب حرس أم خوفو ، بل لقد انتهى إلينا من آيات الصياغة من عصر الدولة القديمة ما لا يقل جمالا عما نرى اليوم من حلى ، وذلك فضلاً عن حلى الدولة الوسطى من تيجان وخناجر وعقود وقلائد ، ومن حلى الأسرة الثامنة عشرة من آثار يوعح حتب إلى آثار زوجات تحتمس الثالث ، ثم ودائع پسونس عاهل الأسرة الحادية والعشرين . ومع ذلك فليس يخلو من مغزى عميق فى هذا المقام أن نذكر عن المصريين تسميتهم لغرفة الدفن حيث تحفظ جثة الملك فى تابوته : كانوا يسمونها **پرنوب بمعنى دار الذهب** .

ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين

وتلك شهادة فيما خلق ووهب العليم الوهاب . وحسبها من نعمة أن تشرف من وصف الله بما وصف بها جنته التى أعدت للمتقين . ولنقرأ قوله تعالى فى سورة الدخان :

« إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون » . (٥١ - ٥٢) .

ومن يس قوله :

« إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » . (٥٥) .

ثم لنقرأ في فرعون وقومه قوله تعالى في سورة الدخان :
 « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها
 فاكهين » . (٢٥ - ٢٧) .

كذلك كانت مصر وما زالت كذلك .
 وستظل إن شاء الله حتى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون .
 ولو مشينا في مناكبها وبحشنا وعملنا لوجدنا فيها غزيراً من نعمائه وخرج علينا
 من أرضها كل يوم جديد ومزید . لأنه بحكم رباني وقضاء إلهي يبقی بقاء
 الزمان وليس له في الأحقاب والدهور حدود .

ففيها من العيون ما يجري به النيل وما يتفجر تحت أقدامنا في الوادي الحديد ،
 وفيها من الكنوز ما يعلم الله وما يعدل الذهب من النفط والحديد ، وما ندري
 لعل فيها منى منطلقات النواة والذرة ذخائر من بأس شديد .

ومع ذلك فما كانت الأرض لتدر علينا من رزقه بغير بذل الكادحين
 وعمل العاملين .

بذلك — مقبلين غير معرضين — يكون لنا فيها المقام الكريم ونعمة نكون
 فيها فاكهين .

ولقد قضت إرادة الله أن يحفظها وأن تظل بمأمن من كل سوء ، إذ
 كرمت على الله حين تأذن بعقاب فرعون وملئه فلم ينزل عقابه بغير المارقين
 وما لهم من ناصرين ، ولم يأخذ أهلها إلا بما يكون بلاءً للمؤمنين : « بشيء
 من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » . ونخص
 فرعون وقومه بما صنعوا .

« ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » وشتان — ولنعتبر
 ولا نأمن مكر الله — بين ما نزل بها ، وما حاق بعاد وثمود وما وقع لسبأ وقوم تبع
 وأصحاب لوط .

ثم لنعتبر بقوله تعالى :

« وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

(النحل ١١٢) .

٨

حُكْمًا وَعِلْمًا

أقام بنو إسرائيل أمداً قدر في التوراة بخمسة وسبعين وأربعمائة عام ، ظلوا فيها يعملون للمصريين ويتكلمون لغتهم ويتداولون فكرهم . ثم خرجوا يحملون ، مع ما سلبوا من ثياب وحلى ، من ثقافة مصر وحضارتها وآدابها الكثير ، وذهبت الحقائق بما أورثتهم مصر في نظمهم وآدابهم وعقائدهم مذهب البدائث التي لا تقبل الجدل ولا تفتقر إلى دليل ، ولا يكاد ينكر ذلك أو يتردد فيه إلا صهيوني أعماه التعصب والحقد عن حقائق العلم ونور اليقين ، أو عميل يستطعم الصهيونية ، أو ضعيف يخشاها فيجاملها وهو في حرج وتنازع في نفسه بين باطل يتملقه وحق في أعماقه يؤمن به ويخفيه .

ولقد كان استقرار يوسف في مصر كما قلنا مكانة مكنه الله منها ، ولو وقع ذلك في ظل العبودية ونخاسة الرقيق ، لأنه إنما أقبل على قدر الله ليعلمه من تأويل الأحاديث . وكذلك نشأ موسى في قصر فرعون ليؤتى من التربية والعلم والحكمة على أيدي المصريين ما يؤهله لرسالة الله بعد حين . وبذلك اعترفت التوراة التي جعلت من حكمة المصريين نموذجاً ينفرد من حكمة أهل المشرق وخصته بالذكر وجعلت في تجاوزه حد المبالغة والتبريز ، وكانت مقياساً لأرفع آيات الحكمة وفصل الخطاب ، إذ تحدثت عن سليمان في سفر الملوك قالت :

« وفاق حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر »
(الملوك الأول ٤ : ٢٠)

ومع ذلك فلسوف نرى مصدر حكمة سليمان وأتى أتى بها ، وقد كانت مصر مضرب المثل في أحاديث سليمان وأناشيده . وهل من صورة أروع من إعجاب سليمان بمصر وانبهاره بحضارتها ونعمتها من قوله في نشيد الإنشاد :

« لقد شبهتك يا حبيبتى بفرس في مركبات فرعون » (١ : ٩)
 وإنما يكون التشبيه بالمثل الأعلى الذي يراه المشبهون ، وكان سليمان ملكاً له من أبهة الملوك وزخرف الثراء ما يتبوأ منها حيث يشاء ، بل لقد كان في قصره الأسراب الكثيرة من حسان النساء . ولكنه لم ير تشبيهاً لحبيبتة أحسن غضارة ورونقاً ونعمة ونعيماً ولا أجمل من فرس من عداد خيل فرعون ، تعيش في حظائره ولا تعيش في قصره . وحسب مصر دليلاً على فضلها وإشعاع حضارتها أن تكون قبلة يتطلع إليها بالإكبار والإعجاب العواهل والملوك .

كان سليمان حكيماً عالماً ، ومن قبله كان أبوه داود عليهما السلام ولقد أثر عن داود وسليمان ما حفظ في العهد القديم من مزامير داود وأمثال سليمان :

« ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » . (النمل ١٥)

ولكن الحكمة إنما تسبقها الخبرة وحصيللة التجربة والتعليم ، ولهذا الحكمة من غير شك منابع وأصول . وقد كان لهما من غير شك وسائل وسبل قدرها الله كي تصل إليهما . ولئن كان داود وسليمان قد عاشا في فلسطين . فلقد تعلمنا عن المدرسة التي أخذ عنها وعلمت من قبل يوسف ثم هارون وموسى . إنها مصر التي شاعت في فلسطين حضارتها وثقافتها ووقر في النفوس علمها وحكمتها . وكذلك فما ينبغي أن نغفل من الحساب ما كان بين سليمان ومصر من علائق وثيقة وشائج متينة توجت بالمصاهرة بينهما :

« وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حوالها »
(الملوك الأول ٣ : ١ - ٢)

« صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاهم مهراً لابنته امرأة سليمان . »

(الملوك الأول ٩ : ١٦)

كان لمصر بحكم تلك العلائق القديمة تأثيرها في حضارة الشرق القديم وثقافته . ومع ذلك فقد شاء الله أن ينكشف الدليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه للعالمين ، وأن يتبين مقدار ذلك التأثير العميق ، حين تأذن فوقهم إلى قراءة طلاسهم الهيروغليفية والهيرطية في القرن الماضي ، وحين ظهر الناس على أناشيد أخناتون وسلطت أضواء الدراسة والبحث على ما كان عثر عليه من قراطيس البردي ، ومنها ما ظل حبيس المتحف البريطاني فلم يعرف محتواه إلا منذ أقل من نصف قرن من الزمان . هنالك عرف علماء الحضارة المصرية اسم بتاح حتب وأمن م أويت وقرعوا حكمة هذا وذاك وراعهم ما وجدوا بينها وبين مزامير داود وسفر الأمثال من شبه مدهش غريب ، فهما لا يتفقان ، معنى وروحاً فحسب بل إنهما ليتفقان في المعنى واللفظ جميعاً . وعاد العلماء إلى دراسة الكتاب المقدس وإمعان النظر فيه ليخرجوا من الدراسة والنظر إلى رأى قاطع وقول صريح ، فقررُوا أن كاتب العهد القديم إنما كانت تحت يده ترجمة عبرية كاملة للكتاب الذي وضعه أمن م أويت المصري وأنه كان ينقل منها بغير تحفظ ، بل لقد مضت بهم الدراسة بفضل النص المصري إلى تصحيح ما كان مشكوكاً فيه من ألفاظ النص العبري من سفر الأمثال وإلى ترجيح معنى من معنيين لهما في العبرية لفظ واحد

أو لفظان متجانسان (١) .

ولو قد تعقبنا آثار الفكر المصري في العهد القديم لما اتسعت لها تلك الصحائف والفصول . والذي لا شك فيه اليوم أن الديانة العبرية لما أبلغت مرحلة تحتاج فيها إلى أساليب القول وأدوات التعبير قد تلمست فيما حولها من آداب الأمم الأخرى ما يكفي طلابها ويسد حاجتها ، حيث وقعت بحكم موقعها الجغرافي وأقدار التاريخ في فلك مصر الثقافي (٢) فضلا عن السياسي ، وما كان من التحام فلسطين بمصر منذ أقدم العصور ودخولها الإمبراطورية المصرية على عهد الدولة الحديثة حيث عمد العبرانيون إلى الأخذ والاقتباس عن مصر والمصريين . وإذا بنا نجد في العهد القديم فصولا عبرية منقولة عن فصول مصرية أو عبارات وأخيلة مصرية متغلغلة في تضاعيف النصوص العبرية وآيات العهد القديم . وسنضرب الأمثال من هذا وذاك ونبدأ بمقارنة فصول من المزامير بأخرى من أناشيد أخناتون ومن بعدها مقارنة سفر الأمثال بحكم أمنم أوبت :

نشيد أخناتون

فإذا غربت في الأفق الشرقى صارت
الأرض في ظلام كأنه الموت
وكل أسد يخرج من عرينه .

مزامير داود ١٠٤

تجعل ظلمة فيصير ليل

فيه يدب كل حيوان الوعر
ولتلمس من الله طعامها

(١) انظر : فجر الضمير تأليف جيمس هنري برستد وترجمة سليم حسن صفحة ٣٩٨ وما بعدها حتى صفحة ٤٠٧ وكذلك انظر Gardiner, Writing and Literature in Glanville, The Legacy of Egypt (1947), p. 66 - 79.

(٢) Ronald J. Williams, Some Egyptianisms, in the Old Testament in Studies in Honor of John A. Wilson (Chicago 1969), p. 93 ff.

مزامير داود (١٠٤)

تشرق الشمس فتجتمع وفي
 مآربها تربض
 الإنسان يخرج إلى عمله وإلى
 شغله إلى المساء
 ما أعظم أعمالك يا رب
 كلها بحكمة صنعت
 ملأته الأرض من غناك
 هذا البحر الكبير الواسع
 الأطراف
 هناك دبابات بلا عدد
 صغار حيوان مع كبار
 هناك تجرى السفن

نشيد أحناتون
 وفي الصباح ، إذا أشرقت في
 الأفق انكشف الظلام
 وإذا الناس يقومون على أقدامهم
 في العالم كله يؤدون أعمالهم
 ما أكثر أعمالك
 إنها خفية على أنظار الناس
 خلقت الأرض كما تشاء .
 والسفن تجرى في النهر صاعدة
 هابطة على سواء .
 والسماك يشب في النهر أمامك
 ونورك ينفذ إلى قلب
 الأخضر العظيم (البحر)

وورث سليمان داود . ولكنه ورث فيما ورث حكمة المصريين التي
 وجدها عند أبيه ومن أوتي العلم في فلسطين . وقد تجاوز سليمان الأناشيد
 والمزامير إلى الموعظة الحسنة وضرب الأمثال ، فإذا ما قرأناه لم نجد عن
 تذكر حكمة أمن م أوبت مصرفاً .

سفر الأمثال لسليمان

أمل أذنك واسمع كلام الحكماء
 ووجه قلبك إلى معرفتي
 لأنه حسن إن حفظتها في جوفك
 إن ثبتت جميعاً على شفقتك
 ألم أكتب لك ثلاثين فصلاً
 من جهة مؤامرة ومعرفة

حكم أمن م أوبت ونصائحه

أمل أذنك واسمع كلامي
 ووجه قلبك إلى فهمها
 لأنه مفيد إن حفظتها في جوفك
 واجعلها مستقرة في صندوق جوفك
 تبصر لنفسك هذه الثلاثين فصلاً
 فإنها مسرة وتعليم :

سفر الأمثال لسليمان

لأعلمك قسط كلام الحق
لترد جواب الحق للذين أرسلوك
لا تسلب الفقير لكونه فقيراً
ولا تسحق المسكين في الباب
لا تستصحب رجلاً غضوباً
ومع رجل ساخط لا تجيء
لا تنقل التخم القديم

أرأيت رجلاً مجتهداً في عمله
أمام الملوك يقف

إذا جلست تأكل مع متسلط
فتأمل ما هو أمامك تأملاً
وضع سكيناً لخنجرتك إن كنت شرها
لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب

لا تتعب لتصير غنياً
كف عن فطنتك

حكم أمن م أوبت ونصائح

معرفة كيف تجيب الذي يتحدث
وكيف ترد على تقرير لمن أرسله
احذر أن تسلب الفقير
وأن تظلم المحزون
لا تستصحب غضوباً
ولا تثقل عليه في حديث
لا تنقل العلامات من تخوم
الحقول ولا تكن شرهاً نحو
ذراع من أرض ولا تعتد على
حدود أرملة
إن الكاتب الماهر في وظيفته يجد
نفسه جديراً بأن يكون من رجال
البلاط

لا تأكل خبزاً أمام عظيم
ولا تكشف فاك أمامه
وإذا أشبعتك لقمة حرام فإنما
هي لذة ريقك . انظر إلى
الوعاء الذي أمامك وعليك أن
تجعله يكفيك .

لا تتعب طلباً للمزيد
إذا كفيت حاجتك
فإذا جلب إليك بالسرقة لم
يبت معك
وفي الفجر لا يكون في بيتك

سفر الأمثال لسليمان

حكم أمن م أوبت ونصائحه

هل تطير عينيك نحوه وليس هو
لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة
كالنسر يطير نحو السماء
انظر مكانه وليس هناك
لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة
كالإوز يطير نحو السماء

ومن العبارات والأساليب البلاغية المصرية التي انتزعت من بيثهم وعقيدتهم ما نجدها كثيرة عند العبريين . من ذلك ما نجد في سفر الخروج (٢: ١٣) من وصف بكرالبنين بأنه فاتح رحم أمه « قدس لى كل بكر كل فاتح رحم من بنى إسرائيل » وهى عبارة من أقدم العبارات المصرية التي وردت فى نصوص الأهرام ، وما نجد فى مرثى أرميا (٢ : ٤) من وصف فريد للملك صدقيا بأنه « نفس أنوفنا » وهى عبارة مصرية شائعة فى اللغة والفن ، نجدها مثلاً فيما ورد عن أخناتون من أنه « نفس كل الأنوف التى يتنفس بها الناس » ولا شك أن مثل تلك العبارات التى تنطق عما كان لفرعون فى عقيدة شعبه من طبيعة إلهية تجعله مصدر حياتهم وسعادتهم ، وقد كانت وجدت سبيلها من قبل على عهد الإمبراطورية إلى فلسطين ، إذ كتب « ابها لكى » وإلى مصر على صور إلى مليكه أخناتون يقول ممتدحاً : « ماذا تكون حياة امرئ لا تأتيه الأنفاس من فم سيده الملك » . وفى رسالة أخرى كتب يصور فرعون بأنه رب الشمس « الذى يمنح الحياة بنفسه الحلو » . كذلك كان من المذائح التى حظى بها رمسيس الثانى بأنه « نفس الحياة للناس أجمعين » وفى نصائح « لمريكارع » عن أبيه من عصر الفترة الأولى ورد عن إله الشمس رع : « إنه خالق الريح حتى تحيا أنوفهم » وفى ترنيمة لرب الشمس « إنك تمنح النسيم لأنوفهم » ، وذلك فضلاً عما نرى فى التصاوير المصرية من مناظر الآلهة وهى تقرب رمز الحياة من أنف الملك (شكل ١٦) . وكذلك جاء فى سفر التكوين (٢ : ٧) « وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً

حية» كما روى عن أيوب قوله (٢٧ : ٣) «... ونفخة الله في أنفى». ومن مألوف العبارات المصرية الخالصة التي تدل على ما يتخذ الإنسان من أسلوب حياته ما جاء في مرثى أرميا من قوله (٦٣ : ٣) «انظر إلى جلوسهم ووقوفهم» وفي مزامير داود (١٣٩ : ١) «يا رب قد اختبرتني وعرفتني، أنت عرفت جلوسي وقيامي، فهمت كل فكرى من بعيد». وهى عبارة واردة فى نصوص الأهرام (٢١٩٨) أقدم مصادر الأدب المصرى الدينى. حيث ينادى الملك : «أيا ونيس عش قبالة فؤادك مثل أنويس، قم واقعد على الف من الخبز والحنة» وعن كاجمنى من الدولة القديمة أن أولاده بعد أن تلقوا نصائحه «قاموا وقعدوا عليها» أى اتبعوها وساروا على منهجها. وفى نصائح بتاح حتب من الدولة القديمة كذلك قوله : «قم واقعد على مكانتك» بمعنى اتبع من السلوك ما يتفق ومكانتك» وعن رخميرع وزير تحتمس الثالث أنه قال «قمت وقعدت على الأمامى والحنى من أمراس السفينة» بمعنى أنه أنفق شطراً من حياته سفاناً.

ومما ورد فى العبارات المصرية فى أسفار التثنية وأشعيا ما حير المفسرين ممن لم ينتبهوا إلى مصدرها الأصيل حتى كادوا برغم صحتها اللغوية يتلمسون لها التعديل^(١) والتصحيح. إذ جاء فى سفر أشعيا (٤٥ : ١٥) قوله «حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلص» وقد كان مبعث الصعوبة والحيرة تفرد معنى العبارة فى هذا الموضع من العهد القديم واختلافه عما ذكر فى المزامير مجازاً من أن يهوه يحجب نفسه (١٠ : ١)، (٤٧ : ٨٩) وذلك بمعنى امتناعه عن بذل العون إذا ما دعى، حيث نجد عبارة المزامير أدنى إلى الشكوى من أن الرب قد حجب وجهه عن الشاكى، ولذلك فإن المعنى من عبارة أشعيا إنما ندركه من النظر فى الأدب المصرى حيث تسود عقيدة الحنى الغامض، وكان آمون عند المصريين إلهاً خفياً ويعنى اسمه «الحنى» وقد ورد عنه فيما ورد



(شکل ۱۶)

من أنشودة بمتحف القاهرة أنه « الخفى اسمه عن بنيه فى اسمه هذا آمون »^(١). وفى بردية من منتصف القرن الثالث عشر من قبل مولد المسيح يمتدح آمون من حيث هو قوة خفية تسود كل شىء « آمون الوحيد الذى يخفى نفسه عن الأرباب ولا يعرف امرؤ طبيعته . هو أبعد من الشمس وأعمق من العالم السفلى »^(٢). وكذلك جاء عن رع فى تعاليم مريكا رع : « لقد أخفى نفسه العليم بالخلائق » .

وجملة فريدة أخرى من سفر التثنية وأشعيا (٥٤ : ٢) واضح أنها مستمدة من الأدب المصرى أن « أوسع مكان خيمتك » إذ هى من العبارات المألوفة المعروفة فى المصادر المصرية منذ الدولة القديمة كما جاء عن كاجمنى قوله « واسع مكان السعيد » كناية عن حرية السعيد فى الوصول حيث يشاء وقول بتاح حتب « رحب مكان المدعو » . ومن عصر الدولة الوسطى عن سنانوهى فى منقاه أنه قال « رحب مكانى » بمعنى حرىته فى التنقل حيث يشاء ومن عهد حاتشبوت من الأسرة الثامنة عشرة عن موظف صغير اسمه سمنى عنخ قوله « رحب المكان فى بيت الحياة » أى أن له حرية الوصول إلى بيت الحياة . ويؤكد تحتمس الثالث فى نصوص تنويجه أن « آمون قد منحنى الملك حتى أوسع أمكنة خالى » وقريب من ذلك التعبير البلاغى عبارة « وسيع الخطى » بمعنى حرية الحركة والتقدم والنصر ، وقد ورد أقدم مثل لذلك فى متون الأهرام فى وصف الولد على سبيل المثال بأنه وسيع خطاه^(٣) ، وفى أبيلدوس يتوجه رمسيس الثانى بالخطاب إلى أبيه سبى فيقول « خطاك وسيع فى العالم السفلى »^(٤) . وذلك فضلا عما نجد فى بردية انسطاسى

ibid. (١)

ibid. (٢)

Pyr. 886 c; cf. 2123 c, 917 c. (٣)

H. Gauthier, La Grande inscription dedicatoire (٤)

d'Abydos (Le Gaire 1912), I. 91.



من الدولة الحديثة من عبارة « وسيع الخطى في المكان السرى »^(١)، ومن العصر البطلمي قولهم : « كانت خطاى وسيعة من أجلك في القصر »^(٢) . وقد وجدت هذه العبارة بنصها سبيلا إلى آداب الكتاب المقدس ، فيقول مزموور يتردد مرتين في العهد القديم « توسع خطواتي » (٨ : ٣٦) وفي آخر « أقمت في الرحب رجلى » (٣١ : ٨) على حين ورد المعنى معكوساً في سفر الأمثال (٤ : ١٢) « إذا سرت فلا تضيق خطواتك وإذا سعيت فلا تعثر » وفي سفر أيوب (١٨ : ٧) « تقصر خطوات قوته وتصرعه مشورته » .

وبعد فما زال في العهد القديم من مثل ذلك كثير ، وذلك فضلا عما فيه من عبارات أخذت عن الحياة الدينية في مصر وتساويرها . من ذلك ما جاء في سفر الأمثال (٢١ : ٢) « والرب وازن القلوب » وهي عبارة لا شك في صدورها عن الديانة المصرية ، يوم انفردت في الشرق القديم من دون ما كان فيه من عقائد بقولها إن الإله يزيد قلب الإنسان ، وقد كان ذلك يجري بين يدى أوزيريس في الآخرة حيث حفظت لنا من مناظر القبور وتساوير كتاب الموتى أمثلة كثيرة كان قلب الميت فيها يوزن لقاء ريشة الحق والعدل « ماعت » وذلك تحت إشراف رب الحكمة جحوتي (شكل ١٧) . ثم عبارة أخرى وردت في سفر ملاخي (٤ : ٢) لا شك في صدورها عن أصل مصري : « ولكم أيها المتقون اسمي ، تشرق شمس البر ، والشفاء في أجنحتها » .

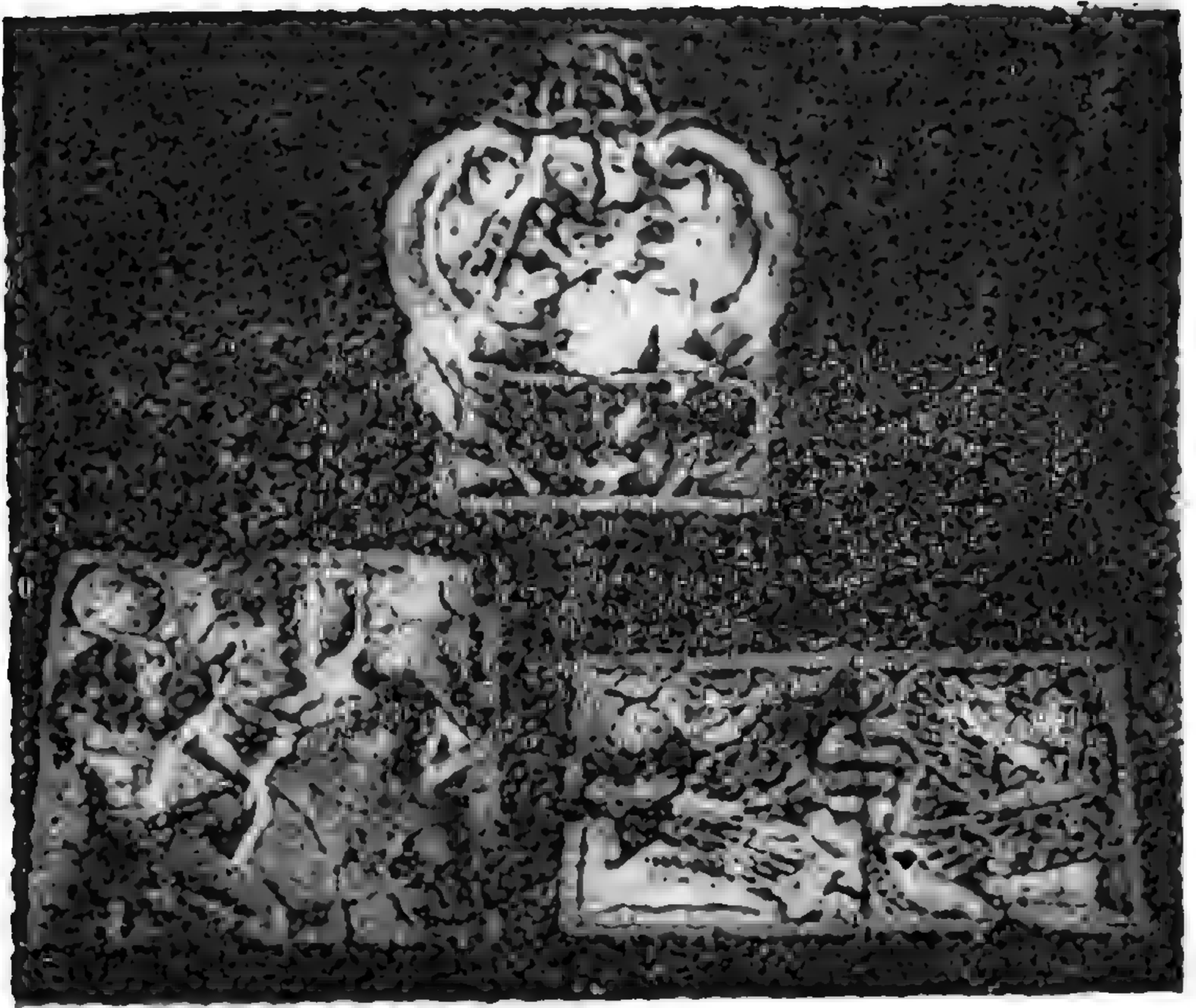
وتلك صورة لا حاجة بنا إلى الإفاضة في الحديث فيها بالنسبة إلى صورة الشمس المجنحة وكانت من الرموز المصرية التي لا يكاد يخلو منها أثر من آثار الدين في مصر ، فإذا كان لنا أن نضيف فإنما نتحدث

Pap. Anastasi III; 2.

Sethe, Urkunden II 3 1. 12.

(١)

(٢)



(شکل ۱۸)

عن « البر » في تلك الآية . وقد وردت في الترجمات الإنجليزية (١) والفرنسية (٢) والألمانية (٣) بمعنى الحق والعدل والقانون والمساواة وهي المعاني التي شملها كلها اسم الإلهة المصرية القديمة ماعت رمز تلك المعاني وربتها جميعاً (شكل ١٨) . وقد كانت بنت معبود الشمس في مصر ، ولذلك فإن الحديث في العهد القديم عما تفيض شمس العدالة من شفاء وما لها من أجنحة تشرق بها إنما هو لا شك مستدير بما كان في الحياة المصرية والديانة المصرية لا مراء .

ومع ذلك فقد تأيد ما كان شائعاً في بني إسرائيل من تلك التصورات المصرية بما عثر عليه في السامرة من تصاوير فلسطينية الصنع مصرية النمط والموضوع ، وذلك في خرائب قصر الملوك من بني إسرائيل ، حيث كشفت الحفائر عن بعض ما كانت تطعم به قطع الأثاث من ألواح العاج المنقوشة ، ففري في أحدها صورة لرب من أرباب الشمس بجسم الإنسان ورأس الصقر راکعاً يقرب في كفه رمز الحق والعدل ماعت ، وفي الثانية صورة حورس الطفل أو حريوخراد منبعثاً من زهرة من زهور السوسن ، وأما الثالثة فتصور إيزيس ونفتيس في هيئة الطير تكتنفان أخاهما أوزيريس (شكل ١٩) .

ولقد بلغ من شيوع تلك العبادات والعقائد الوثنية منذ عهد باكر في بني إسرائيل وتغلغلها فيهم (٤) أن صاحب سفر الملوك الثاني قد نسب إلى موسى صنع حية من نحاس ظل بنو إسرائيل يقربون لها ويوقدون بين يديها حتى أزالها وسحقها حزقيا ابن آحاز ملك يهوذا .
(الملوك الثاني ١٨ : ٤) .

righteousness.

(١)

justice.

(٢)

Gerechtigkeit.

(٣)

(٤) سفر الملوك الثاني : إصحاح ١٧ : ٧ - ٢٣

(٧)



(نکل ۱۹)

ولا حاجة بنا إلى القول أن الحية كانت من مصر ، حيث اتخذت صورة الحية لكثير مما قدس المصريون من معبودات .

على أن أجل ما يستحق الذكر عادات مصرية خرج بها بنو إسرائيل من مصر فتحولت شعائر مقدسة في ملة اليهود . إذ خرجوا بعادة الختان والغسل من الجنازة وتطهر الوالدة بعد أن تضع حملها ثم المحرقات أو تصعيد ذبائح قربان بالحريق .

أما الختان فكان معروفاً منذ أقدم العصور حيث كشف عما يدل عليه مما عثر عليه في جبانات فجر التاريخ من قبل أربعة آلاف عام من قبل مولد المسيح ، وذلك من رسوم بلغ من حفظها أن أمكن فحصها والاستدلال على اتباعهم الختان ، وذلك فضلاً عن صورة من الدولة القديمة في قبر عنخ مع حور من أطباء الأسرة السادسة وأخرى من الدولة الحديثة بالكرنك . وظاهر من أخبار التوراة كذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يختن إلا بعد عودته من مصر وإنجابه إسماعيل . ومن طريف ما ورد في خبر الختان في التوراة أنه كان يجري بأداة من صوان ، وكان المصريون قد بدءوا صنع أسلحتهم وسكاكينهم من صوان وكانوا يسمونه « دس » ثم لم تلبث السكينة نفسها ولو كانت من المعدن أن سميت دس ، وإن كان كتاب التوراة قد ظلوا يترجمون عن المصرية ما يدل عليه اللفظ من معنى أصيل .

وأما الغسل من الجنازة فقد دل عليه ما روينا من قصة الكاهن الذي تربص لعشيق زوجته وهو يغتسل في البحيرة^(١) . وكان المصريون يحرصون أشد الحرص على الاغتسال قبل دخول المعابد أو القبور ويحذرون من دخولها أقصى غاية الحذر على غير تطهر . وكذلك كان على المصرية التطهر إذا وضعت حملها بعد أربعة عشر يوماً من الوضع ، كما تحدثت بذلك بردية وستكار عن تطهر ودجبت في أعقاب وضعها ثوانمها

الثلاثة^(١) ، وكذلك فعل العبريون لولا أنهم نزلوا بتلك الفترة إلى النصف إذا وضعت غلاماً :

« إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام ، كما في أيام طمث عليها تكون نجسة ، وفي اليوم الثامن يحنن لحم غرلته ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً في دم تطهيرها . كل شيء مقدس لا تمس وإلى المقدس لا تجيء حتى تكمل أيام تطهيرها . وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها . . » (لاويين ١٢ : ٢ - ٥)

وفي سفر الخروج توصية من موسى - من قبل نزول الشريعة - « وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث لا تقربوا امرأة » (خروج ١٩ : ١٥) وكذلك في سفر صمويل الأول (٢١ : ٤ - ٥) نجد داود وهو يتساءل عن إمكان أكله من الخبز المقدس فيقول : « ألم نتجنب النساء منذ ثلاثة أيام . . . فكل رجال طاهرون » .

أما المحرقة أو الصعيدة فكانت من أهم ما أخذ اليهود عن المصريين من شعائر ، وكان المصريون يصعدون القربان في شعائرتهم الجنبية^(٢) أو شكراً إذا خرجوا إلى سفر ويسمونهم « سب ن سجت » وقد قدم البحار الغريق الذي حطمت الأنواء سفينته ثم ألقت الأمواج على شاطئ جزيرة منعزلة في البحر الأحمر ذلك فأقام محرقة^(٣) ، كما عهدنا تلك الشعيرة في قبر سنبل بالبحيزة وفي قبر منا بالأقصر . وكانت شعائر المحرقة عند اليهود تقضى بتقديم ذبيحة تحرق في الصباح وأخرى في المساء^(٤) - وكذلك كان المصريون من قبل يفعلون .

op. cit., p. 89.

(١)

Junker, Das Brandopferim Totenkult in Miscellania

(٢)

Gregoriana (1941) p. 109 - 119.

Lefebvre, op. cit., p. 34.

(٣)

(٤) الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه للدكتور حسن ظاظا (القاهرة

(١٩٧١) ص ٨٦ - ٨٧

في سنة رسول الله

شرفت مصر من محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته إلى الإسلام ،
إذ كتب إلى المقوقس وإلى الروم عليها كتابه المشهور إذ يقول :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى
المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني
أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم يؤتلك الله أجره مرتين ، فإن توليت
فعلبك إثم كل القبط »

« ي أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله
ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ،
فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وقد رد المقوقس فبعث إلى رسول الله جارية هى مارية القبطية
التي أنجبت له ابنه إبراهيم .

ثم إذا كان لرسول الله فى مصر وأهل مصر من أحاديثه الشريفة من
جوامع الكلم ما قدر لها ولهم من الفضل والكرم ما نثقله هنا عن جلال
الدين السيوطى من كتابه حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة قال :
قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى فتوح
مصر ، حدثنا أشهب بن عبد العزيز وعبد الملك بن مسلمة قال حدثنا
مالك بن أنس عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك
عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا افتتحتم
مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى ذر قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط
فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » .

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق مجير بن داجر المغافرى

عن عمرو بن العاص عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة .

وأخرج الطبراني في الكبير وأبو نعيم في دلائل النبوة بسند صحيح عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته فقال : الله الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله .

وأخرج أبو يعلى في سنده وابن عبد الحكم بسند صحيح من طريق ابن هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجيلي وعمرو بن حريث وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنكم ستقدمون على قوم جعد رعوسهم فاستوصوا بهم خيراً فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله ، يعنى قبط مصر .

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق ابن سالم الجিশاني وسفيان ابن هانئ أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنكم ستكون أجناداً وخير أجنادكم أهل المغرب منكم فاتقوا الله في القبط لا تأكلوهم أكل الخضر .

وأخرج ابن عبد الحكم عن مسلم بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : استوصوا بالقبط خيراً فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم .

وأخرج ابن عبد الحكم عن موسى بن أبي أيوب اليافعي عن رجل من المريرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض فأغمى عليه ثم أفاق فقال : استوصوا بالأدم الجعد ثم أغمى عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك فقال القوم لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدم الجعد فأفاق فسألوه فقال قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على

عدوكم وأعوانكم على دينكم ، فقالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا
يا رسول الله فقال يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة فالراضي بما
يؤتى إليهم كالفاعل بهم ، والكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمستتره
عنهم .

وأخرج ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة قال حدثني عمر مولى عفرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الله الله في أهل الذمة أهل المدرة
السود السحيم الجعاد فإن لهم نسباً وصهرأ . قال عمر مولى عفرة صهرهم
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى منهم ، ونسبهم أن أم إسماعيل
عليه السلام منهم فأخبرني ابن لهيعة أن أم إسماعيل هاجر من
أم العرب .

وقال إمام بن عبد الحكم حدثنا عمر بن صالح أخبرنا مردائي
القصاص قال : صاهر إلى القبط من الأنبياء ثلاثة ، إبراهيم عليه الصلاة
والسلام تسرى هاجر ، ويوسف عليه الصلاة والسلام تزوج بنت صاحب
عين شمس ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية .

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس
أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم عسلا من غسل بنها فأعجب
النبي صلى الله عليه وسلم فدعا في غسل بنها بالبركة . مرسل حسن الإسناد .
وأخرج ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا
فها جنداً كشيفاً فذلك خير أجناد الأرض ، فقال ولم يا رسول الله ؟ قال
لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة .

القبط

تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما تحدث مؤرخو
عصره عن المصريين باسم القبط والأقباط ، ومن ذلك اللفظ كان

اسمها الذى عرفت به عند الإغريق والرومان ، ثم عند الأوربيين ، من بعد ذلك ، أجمعين . ولم يكن لاسمهم هذا من دلالة على ما كانوا يتحلون من ملة أو يعتنقون من دين . فكل من فيها إذن قبط وأقباط . ولم يكن ذلك اللفظ إلا تصحيفاً لاسم من أسماء مدينتهم منف التى كانت فى مصر عاصمة كبرى من عواصم الدنيا والدين ، حيث نشأ فيها لمعبودهم بتاح معبد عظيم عرف باسم إحت كا بتاح بمعنى دار روح بتاح ، بلغ من الشهرة والعظمة بين المصريين ومن ساكنهم من الحاليات الأجنبية الكثيرة أن أضفى اسمه على المدينة كلها ثم على البلد كله ، فإذا بمنف ثم مصر كلها تعرف باسم حت كا بتاح ، ومنه كان إيجيبتوس وقبط ثم إيجيبت EGYPT ، فالمصريون بذلك قبط وأقباط من قبل الإسلام ومن بعد الإسلام ، وهم كذلك ، سواء من أقام على ملة المسيح أو دخل فى ملة الإسلام ، ولا فرق بين أن يقال مصرى وقبطى إلا كالفرق بين القول شامى ودمشقى أو إنجليزى وبريطانى أو كالفرق بين النسبة إلى العراق والنسبة إلى اسمها القديم بابل أو بلاد النهرين Mesopotamia

ومهما يكن من سند ما أوردنا من أحاديث رسول الله فى أهل مصر ، وهى عن رجل من كبار علماء المسلمين المفسرين ، فهى تتناول أموراً ثلاثة نجد مصداقاً لها بين أيدينا منها ، من أحداث التاريخ وأحوال أهلها .

- الأول : أن للعرب فهم صهراً وذمة .
- الثانى : أنهم يكونون قوة وبلاغاً إلى عدوهم .
- الثالث : أنهم خير الأجناد وأنهم يكونون نعم الأعوان على قتال عدوهم .

وهى من الحقائق الناصبات التى صدقتها وقائع الأحداث ، وأثبتها التاريخ على مر القرون والعصور .

فهم - فيما روى عنه صلى الله عليه وسلم للعرب أنحوال وأصهار ،
فمنهم الهاجر - أو - هاجر - أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ،
ولا حاجة بنا إلى التفصيل فيما أسلفناه وفصلناه ، ومنهم كانت مارية
القبطية التي تسراها وأنجب منها إبراهيم محمد رسول الله .

ومع ذلك فلم يكن المصري قصى العرق من العربى في غابر الأعوام
ولا حاضر الأيام . فلقد شهدت العصور الأولى من فجر التاريخ شعوباً
وبطوناً عربية تنطلق من قلب الجزيرة العربية كل منطلق إلى
مواقع الخصب والاستقرار ، فمنهم من استقر في أرض الفراتين فكانوا
من أصول العراقيين ، ومنهم من استقروا في أرض الشام فكانوا من أصول
السوريين واللبنانيين وغيرهم عبر سيناء إلى أرض مصر على ضفاف
النيل ليكونوا مصريين ، وآخرون استقروا في أقصى الجنوب من
الجزيرة أو أقصى الشرق منها يمانيين وحضارمة وعمانيين . أولئك
وهؤلاء كانوا شعوباً وقبائل سامية تتفرغ من أصل واحد ترد نسبته
إلى سام بن نوح ، ويتكلمون لغات نبطت من معين واحد وإن بعدت
فيما بينها الشقة من بعد التفرقة والانشعاب حيث كان التوطن والاستقرار .
ولم يكن لقبيلة يومئذ أن تؤثر نفسها وكلها من أصل واحد
بصفة العروبة دون غيرها من أهل تلك الأمصار أو هذه الديار ،
فلم يكن معنى العروبة قد نبت بعد إلى الوجود ، ولقد أتى على العرب
حين من الدهر كانوا يتكلمون فيه لغات ولهجات شتى لا يكاد يجمعها
إلا العرق والدم برغم عسر التفاهم بل عسر التقارب والوثام ، ولم تكن
لغة السبثيين والحميريين في أقصى جنوب الجزيرة العربية بأقرب من
المصرية إلى النبطية والآرامية في أقصى شمالها (١) .

ولقد كانت اللغة المصرية القديمة لغة ذات صبغة سامية في

(١) التاريخ العربى القديم تأليف ديتلف نيلسن وفريتز هومل ول .
رودوكاناكس أدولف جرومان . ترجمه واستكماله د. قواد حسنين على ص ٢٧ .

بنيتها وكثير من ألفاظها ، فهي تقوم على الفعل الثلاثي الذي يصرف ويشق منه اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة ، وتشابه فيها الضمائر المنفصلة والمتصلة بنظائرها في العربية والعبرية والآرامية والآرامية والجزرية الحبشية والسبئية ، ويثنى فيها الاسم فضلاً عن جمعه بل جمعه بالواو . كل ذلك فضلاً عن شبه لا يكاد يقع تحت حصر في ألفاظ اللغة وكلماتها ، فمنها ما يبدو صريحاً لا لبس فيه ومنها ما هو مستخف من وراء القلب والتصحييف أو تبدل المتشابه من الحروف (١) .

فلما تأذن ربك بفتح مصر تحت راية الإسلام إذا بها بمن تغلغل فيها من العرب وأقبل عليها من أنصار القرآن تنصر بصهرهم وتستحيل عربية صريحة بقلبها ولسانها ، وإذا بها تنقاد لقدرها المقدور فتكون الإمام والزعيم .

على أن زعامتها لم تكن فريسة غصبتها ولا غنيمة افترصتها من دون الآخرين ، بل كانت أمراً منطقيّاً تتداعى إليه وقائع الأحداث والتاريخ ، كأنها حقائق العلوم وأفلاك النجوم . لذلك كانت وتكون في تلك الرقعة من الأرض الزعيم وصانع الزعماء ، ثم تكون وأهلها كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم الأعوان . ولئن كان صلاح الدين الأيوبي زعيماً وبطلاً في العرب والمسلمين فما كان لزعامته أن تستقيم ويورى زنادها بغير مصر . وما كان لمحمد عليّ أوائل القرن الماضي أن يبلغ ما بلغ بغير مصر . ومن قبله أدرك المعز لدين الله من عرشه في المغرب ألا غناء — فما أراد لنفسه ولدولته — عن مصر ، ولقد كان قوله في خطبته عند إنفاذه جوهراً لفتحها قولاً عن بصر وبصيرة وعن تقدير وتدبير إذ قال : « ولسوف يفتح جوهراً مصر ويبنى هناك مدينة تقهر الدنيا » .

وقد فتحها وأنشأ القاهرة .

(١) انظر الملحق في آخر هذا الكتاب .

ومع ذلك فلم تكن تلك الزعامة ادعاء منها فرضته أو ادعته على خلاف المنطق من الوقائع والأحداث . وحسبها من ذلك أن يرشحها لذلك الأعداء ويقرروا لها به فيما صدروا عنه فمن فعل لمصلحتهم هم لا لمصلحتها هي . فلقد أدرك الصليبيون أن لا مستقر لهم في الشرق باستقرار مصر ، ولا نصر لهم يحقق المطامع وفي مصر عرق ينبض بالمقاومة والصراع فلم يبالوا أن تتحول حملاتهم عما خرجت له من بيت المقدس إلى مصر . لأنهم أدركوا أن لا مناص لهم من تحطيم الرأس والقضاء على الروح المحرك والقوة الدافعة (١) أو أنهم أدركوا أن في أهلها — كما روى عن رسول الله صلوات الله عليه — قوة وبلاغاً إلى عدوهم . فتصدت لهجومهم بقيادة جان دي بريين على عهد الملك العادل الأيوبي وخليفته الملك الكامل ، ثم استقبلت حملة السلام التي جاء بها الإمبراطور الألماني فردريك الثاني ؛ ثم عادت فتصدت لحملة لويس التاسع المشهورة على عهد الصالح أيوب وابنه توران شاه . فبذلت لكل منهم مثل الذي أراد ، فجنحت مع من جنح إلى السلم وأذاقت الهوان من أراد بها الهوان .

بل لقد ظل إقرار الأعداء بتلك الزعامة واستشعارهم ما في طاقتها من قدرة قائماً في عصور ضعفها ومحنها واضطرارها إلى الاستكانة — حيناً — لحكم غاصب دخيل . فما خضعت لسلطان إلا وضع لحكمها نظاماً متميزاً يخيل به لنفسه أنه يحول بينها وبين التحلل من قيوده والتحرر منه أولاً ، ويحول بينها وبين الامتداد إلى جيرانها بالعون والتأييد ثانياً :

كذلك فعل الرومان ، وكذلك فعل الترك من آل عثمان .
ومع ذلك فتهيئات هيات ، مهما طال الأمد أو بعدت الشقة ،

(١) Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages,

(London 1914) p. 218.

أن يعرقل برية الخالق إنسان ، أو يعطل مسير الزمان . فلقد ظلت وستظل من العرب بمثابة القلب والمقتل من الجسم لمن أرادهم بمكروه ، من أصابها أصابهم ومن عزلها عنهم فكأنما عزل عن الجسم الرأس وشل مراكز الأعصاب .

وكذلك دبرت وتدبر دول المطامع في العصر الحديث .
وكذلك أقامت بينها وبين أخواتها العربيات حائلا من أحقاد الصهيونية وأطماعها .

ولكن هبات هبات - مهما طال الأمد أو بعدت الشقة - أن يعرقل برية الخالق إنسان أو يعطل مسير الزمان ،
ومع ذلك فهل يدرك الإخوة العرب اليوم أن الأوان للعمل قد آن ؟
وما أصدقها من قولة لعظيم من عواهل العرب المحدثين هو « الواثق بالودود عبد العزيز آل سعود » قال :

صلاح العرب بصلاح مصر .

إذا استقامت أمور مصر استقاموا

وإن أصابها - لا قدر الله - العوج ضلوا الطريق (١) .

وفضلا عن ذلك فلم يبعد بنا العهد عام ١٩٥٦ بمن قال من سياسة فرنسا يومئذ « إن معركة الجزائر إنما تقاتل في القاهرة » . فتلك إذن حقيقة الحقائق لا رية ولا مراة .

وحسبها وقد اختلطت بالعقول والأحاسيس والمشاعر أن يقول بها حكيم من عواهل الشرق وأريب من سياسة الغرب ، ويقول بها على لسان مصر شاعر ترجم بها عن حس كل عربي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق :
أنا إن قدر الإله مماتي لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ولقد لقيت مصر ما لقيت بحكم ما احتملت من كفالة فُرضت

(١) مقال بصراحة لمحمد حسنين هيكل بصحيفة الأهرام يوم الجمعة

عليها بما جبلت عليه من خلقها وخليقتها - شهامة والتزاماً في سبيل أخواتها - مصرفاً ، وإدراكاً منها مع ذلك أنها وأخواتها كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وصدق رسول الله بما روى عنه من قوله فيها :
 « فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض » .
 « فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم » .
 « ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله » .

ولقد مكن الله لها ذلك بما توفر لها من أموال وبنين وبما حباها به من جنات وعيون وكنوز وزروع ومقام كريم ، فطوع لها المدد بل الأمداد من الجند الكثيف ، وما زال في طوعها بالتنظيم والتسليح تجنيد خمسة آلاف ألف من المقاتلة مدججين . أولئك ينبعثون من أرض فرضت عليهم - مع سخائها - الدأب والمثابرة والكد والكفاح ، حيث نشأ المصري عاملاً بطبعه منشئاً بفطرته على مدى تاريخه القديم والحديث ، من الهرم العالى إلى السد العالى ، ومن كفاح مع الهكسوس في هواره وشارود حان إلى معارك تحمس الثالث في مجدو وقرقميش ومعارك ابنه أمنتب الثاني في شمش أدوم والأورونت والنهرين ، ثم معارك رمسيس الثاني في قادش ودابور وتونب وحلب ، ثم كفاح مع الصليبيين والمغول ثم الترك والفرنسيين والإنجليز والصهيونيين . كفاح للرزق مع الأرض وكفاح العدو من أجل الأرض ، واختلاف الأيام عليها بالنحوس والسعود وبالهزيمة والانتصار ، ولكنه في هذا كله جلد دعوب قوى صبور ، فما تغشاه من محنة إلا تغلب عليها واجتازها وفرض نفسه عليها . ولقد أقبل على مصر البطالة فحكموها وحرموا أهلها الجندية إلا خدماً معاونين ، فلما اضطرت فيلوباتور إلى تجنيدهم حين اشتدت عليه وتآزمت الأمور إذا بهم برغم طول عزلة عن الجندية يخوضون عام ٢١٧ ق . م معركة هائلة في رفح انتزعوا فيها من السليوكيين النصر المبين ، وأثبتوا ما في أعماقهم من قوة كامنة تنطلق

ما أتيح لها التفجر والانطلاق .

لقد صدق رسول الله فيما قدر لأهل هذا المصير من مصير . كفاح لم ينقطع ولن ينقطع ما دام في الأرض - يضطرب فيها بغرائزهم ونزعاتهم الناس من أخوة قابيل وهابيل ، ولذلك فهم كما قال « في رباط إلى يوم القيامة » ولا غرو يكونون لذلك خير أجناد الأرض . وهم مع ما جبلوا عليه من القوة والدأب قد امتازوا كذلك بقوة تهون معها قوة العضل وبأس الحديد . تلك هي .

قوة الإيمان

إيمان بربه هون عليه الموت حيث أنكر الموت فما رآه إلا مجازاً إلى حياة الخلود .

إيمان أقام في نفسه على اختلاف الملل والنحل على مر القرون والعصور : من نحلة أوزيريس بن إيزيس إلى ملة عيسى بن مريم إلى دين الإسلام ، فهو صائر بنص هذه أو تلك إلى حقول يارو أو الحياة الأبدية أو جنات عدن تجري من تحتها الأنهار .

ثم إيمان بوطنه الذي تخيل فردوس الآخرة على صورته ، أو إيمان بأن بلاده « أم الدنيا » . ولذلك فهو يلاقي مصيره وأقداره مقبلاً غير مدبر ، ولذلك فهو وآله من قبل في رباط ، وصدق رسول الله « استجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم » . فما تنزل من محنة يتعرض لها العرب إلا كانت مصر صاحبة الكفل الأعظم فيما تحتمل من تلك المحنة ثم صاحبة السهم الأكبر فيما تبذل لإبلاغهم النجاة والخلاص .

كانوا هم الصخرة التي تحطمت عليها أمواج المغول وجحافل المغول في عين جالوت ، حين تدافعوا كالسيل العرم على العراق يدمرون ويخربون ، حتى « احمرت الأرض من دم الغباد واسود ماء دجلة من

المداد .. إذ كانوا هم القوة التي أنقذت حضارة الإسلام من جند هالاسكو
ثم إجنند غازان.

وكذلك خاضت ما شاء الله من معارك ضد جحافل الصليبيين .
حيث شاء الله لها وبيد بنيتها أن تخلى المشرق ممن تستروا بالمسيح واعتصموا
بأطماعهم من وراء الصليبان ، وشهدت لها صحائف الأيام بما بذلت
في أرسوف وحطين وفي المنصورة وفارسكور ثم في عكا وأرواد .

لذلك فقد كتب على المصريين بحكم موقعهم كما قدمنا وتكرر
أن يكونوا كما قال رسول الله في رباط ، أو كما نقول نحن في تأهب
واستعداد . ولقد علمهم التاريخ وما ينبغي أن ينسوا أنهم منتصرون ما أقاموا
في رباط متأهبين ، ممسكين أسلحتهم متمسكين بالأخلاق ساهرين ،
وأنهم أذلة صاغرون إن أعرضوا وتركوا السلاح أو أهملوا النضال والكفاح .

والله إنها لهم وللعرب بدر أو أحد أو هي الأحزاب أو حين
لا اختلاف مهما بعدت الشقة أو قلب الزمان .

إيمان ونظام يحفظ القوة ويأتي بالنصر .

أو أطماع ومغانم وغرور وتهريج تجر الهزيمة وتستتبع الهوان .
وما أرى رباط اليوم بغير العلم الذي لا غناء عنه فهو اليوم صنو
الحياة والأنفاس .

ولا رباط اليوم بغير سلاحنا نصنعه مهما غلا فلا نتكفف في سبيله
وعوداً قد لا تتجاوز الشفاه .

لقد كانوا وما زالوا خير أجناد الأرض منذ عصور الفراعين حتى هذا
الجيل من أبنائها المحدثين .

وقد أثبتوا للبطالة في موقعة رفح بعد طول حرمان من الجندية أنهم
جنود محاربون ، وأثبتوا تحت محمد علي كيف يغلبون الترك ويبهرون
الأوربيين ويروعون .

ومع ذلك فقد لا تبدو شجاعة الشجاع ولا صلابته في معارك الظفر

والانتصار ، بقدر ظهورها في محن الهزيمة والانكسار ، وسوف يعلن التاريخ كيف قاتل القلة من أبنائنا في بعض بقاع سيناء عام ١٩٥٦ وكيف قاتلوا برغم حلول النكسة عام ١٩٦٧ .

هم خير أجناد الأرض مطبوعين فلتتعهدهم بالتربية والتعليم صانعين . ولنعد إلى ما روى من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته في أهل مصر: « فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله » . ولقد اختار عليه الصلاة والسلام هذا الوصف بأنهم هم القوة لأن القوة جوهر في ذاتها تتمثل فيهم وليست صفة عارضة تنسب إليهم يوماً وتنتفي عنهم في غيره من الأيام . ولقد كان المصريون قوة تفجرت عنها وانطلقت منها ما تسامعت به أجيال من بعد أجيال . على أن المتأمل لا يحتاج إلى النظر وإمعان الفكر في قوة القوى إذا قضى أو أراد .

ولنما تمتحن القوة إذا اعتورتها المحن المدلّمة والمصائب الشداد ولقد عرفت في المصريين القوة بما ركب في طبيعتهم ورسخ في أعماقهم من قدرة على المقاومة والصمود .

هم قوة بما جبلوا عليه من المصابرة والعناد . فلا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو وقع الإكراه من أهل التجبر والطغيان .

فلم يستطع أخناتون حملهم على التوحيد من حيث رفضوه . كما لم يستطع دقيان حملهم على الكفر لأنهم كرهوه واستنكروه . ولم يبالوا مع الأول تعرضهم لعسف واستبداد . ولا مع الثاني لقتل واستشهاد . وربما هادنوا الطغيان تحيناً للصدام والصراع . وسايروه سخرية على غير طاعة ولا انصياع .

أقبل عليهم الهكسوس فأقاموا فيهم نيفاً وقرناً من الزمان متسلطين فاتحين ، وأقام المصريون يتحينون الفرصة أيقاظاً ساهرين .

فلما آن الأوان خرجوا عليهم خروج العازم المنتقم الذي لا يرضى بغير الحرية أو الحمام . ووقف الشعب من وراء حماته وأجناده يبذل عن طواعية وسخاء ، ولا يبالي بغير غايته ومبتغاه .

ولم يخذعهم البطالة عن أنفسهم ولا دينهم فأقاموا على المقاومة والثورات ولم يطمثوا إلى دين خرجوا به وابتدعوه ، بل ظلوا بترائهم مستمسكين وعلى عادتهم عاكفين . وأقاموا على إنشاء المعابد ورعاية الهياكل والمحاريب . بل لقد شكوا هيرودوت من المصري اشمترازه من الإغريق أن يقبله أو يصطنع أدواته أو يشرب من إنائه . وفي ذلك مظهر من أشد مظاهر المقاطعة للطاري والترفع على الدخيل . ومع ذلك فقد أخذت حضارة الغالب عن حضارة المغلوب . واعترف فلاسفة الإغريق بحكمة المصريين . وغزا دين المصريين قلوب اليونانيين والرومان أجمعين .

وأقبل الفاطميون يحملون مع الإسلام مذهباً في التشيع لم يرضوه ولم يسيغوه ، ثم زالت سلطتهم وانحسرت دولتهم فما تركوا في مصر من شيعي واحد . وقد تتبين صلابة المصريين وعنادهم مما اتبع الفاطميون في سبيل نشر المذهب قرنين كاملين من دعوة منظمة تولاهما مع داعي الدعاة سيف المعز وذهبته وتولته بطانته وأنصاره . وتغلغلت الدعوة في المجتمع مواكب وأعياداً ومآدب وحفلات ، وأخباراً كثيرة عن كرامات ومعجزات . بل كان للدعوة مدخلها المقبول اللطيف إلى نفوس الناس وهي تدعو إلى إجلال آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد أغرم المصريون وما زالوا بآل البيت وإجلال آل البيت ، بل إن حب آل البيت لمقيم في النفوس راسخ في القلوب . وما زال من المصريين من يشرف ويفخر بنسبه إلى ابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

على دين واحد كان الحاكم والمحكوم .
وعلى رأى واحد في حب آل البيت وإجلال آل البيت كان الحاكم والمحكوم ، فأما أن يتعدى الحب والإجلال إلى ما ليس له به علم فتلك

حدود الصدوف ومواقع الوقوف .

لأنه إنما يدرك بما رسخ في أعماقه من دقيق الحس والشعور وما منح من ذكاء فطري يميز به - مظان الخلل ومواطن الخلاف ، وإذا بالأزهر الذي أسس للدراسة المذهب الشيعي يتحول إلى أكبر مدرسة لتعليم الدين على مذاهب أهل السنة والتابعين .

ثم أقبل على مصر الترك من آل عثمان .
أولئك حملوا راية الإسلام على مذهب السنة فلا خلاف في المذهب ولا خصام .

وجاء السلطان فحشر فنادى ، فقال أنا سلطان البرين وخاقان البحرين ، وأنا حامى حمى الحرمين ، وأنا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين .

وأقبل الترك على المصريين أفواجاً يزعمون لأنفسهم تفوقاً لا أدرى - بغير الفتح والغلب - كيف كسبوه إن كانوا بالحق برهنوه وما برهنوه . فكل رفيع ممتاز عندهم تركي وعثماني وإسلامبولي أو اسطمبولي . وغير التركي في عينهم « فلاح » أو من فلاح « خيرسيس » .

هنالك تجلت قوة المصرية في المصريين كأروع ما تكون قوة الإحساس بالنفس والإحساس بتكائه من حضارة الإنسان من قديم الزمان . ذلك أنه قادر على أن يميز الطبل الأجوف ولو دوى دوى الرعود ، والومض الحلب ولو كاد منابرقه يذهب بالأبصار . أقبل التركي باسم الخلافة والإسلام ولكن المصري بحسه المرهف وحكمته العريضة قد فرق بين دعوة الإسلام السمحة وبين التسلط المرفوض في الحكم المفروض . واتخذ سياسة من أدق ما اتخذ إنسان من سياسة وأبرعها مسلكتاً . كره التركي في تسلطه واستعلائه وخالفه وقاومه . ولكنه خالفه على قوى البغى الأوربي واستعمار الغاصبين .

لذلك فما تلبث تلك الأفواج التركية أن تدخل فيمتصهم كعادتهم المصريون ، ويهضمهم المصريون . يمتصونهم بشراً وإخوة ويهضمونهم نسباً وصهرراً بغير سيادة مقحمة أو استعلاء مزعوم . ويقم المصري على

اعتزازه بنفسه وتقدير ثقافته وحضارته ، فلا يثير استعلاء التركي منه إلا السخرية المريرة والضحك العريض ، فإذا زال السلطان التركي لم يترك في المجتمع المصري إلا ما يتركه الماء الصافي على الجلاميد الملساء فلا تركية ولا عثمانلية .

وقد شاء نابليون أن يوطئ لأحلامه في مصر بما شاء أن يزعم ويدعى من المزاعم والدعايات . فما كان جواب قومها إلا ثورة القاهرة الأولى وثورتها الثانية ثم مقتل كليبر خليفته فيها وضابطه الكبير .

وقد يبدو للمخدوع وصاحب النظر السطحي كأن المصريين يخدعون عن أمرهم حيث يراهم كأنما أيدوا السلطان الجائر ونصروه ؛ وتعشو عينه عن سلاح عجيب من أسلحة الخذلان والتضليل عرفوه واتبعوه ؛ ذلكم هو سلاح السلبية والإهمال وما عبر عنه شوقي رحمه الله في قوله :

لقد أنلتك أذنًا غير واعية ورب مستمع والقلب في صمم

ولعل في الدارج من أمثلتهم ما يصور أسلوبهم وطريقتهم إذ يقولون : « خليك مع الكذاب لحد باب الدار » . وهم يعلمون ألا مصير للكذاب إلا الخذلان والبوار . وهي السياسة التي عبر عنها داهية العرب معاوية بن أبي سفيان في قوله لابنه « كل من حاول أن يخدعك فتخادعت له حتى بلغت منه مأربك فقد خدعته » . لذلك فلا حرج عندهم في الأخذ بما أشاع الفاطميون من المواكب والأعياد ، ثم لا خوض فيما وراء ذلك من الدعاوات والغيبات ، ومن عجب أن يتخذوا يوم عاشوراء وهو يوم حزن عند الشيعة — عيداً يأكلون فيه الحلوى وأطياب الطعام .

ومع ذلك فقد ركب في طبعهم ما لا أدري أيحسب للمصريين أم يحسب على المصريين ، ذلكم هو طول الصبر وامتداد الأناة ، كأنما طبع تاريخهم الطويل في أنفسهم مقاييسه البعيدة الضاربة في أعماق القرون والدهور . ولقد احتل الإنجليز ، مصر كما احتلوا غيرها من أمصار العرب سنين ، وتفتحت أبوابها معهم لشذاذ الآفاق وطلاب الثراء والنهازين ، وامتلات

بأجناس اليهود والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والأرمن واليونانيين والمالطيين ومالت إليهم طبقة من المتهمرين والمتفرنجين مقلدين ، واندفعوا إلى ما طؤلوا من مدارس لم تستقبل أبناءهم لوجه الله ولا لوجه العلم والحضارة مخلصين . « وإنما الأعمال بالنيات » .

وقامت في القاهرة والإسكندرية ومدن القناة أحياء ونواد بدت كأنها وتكاد تحرم على المصريين . بل كان على المصري إن شاء أن يدخلها - وسمح له - أن يلوى لسانه بلغة غير لغته ويتكلف غير طباعه أو تنوشه - على الأقل - العيون ، ثم لا طعام ولا شراب إلا باسمه الأجنبي وإلا تعرض المسكين للهوان وعد من أسفل سافلين .

ثم امتلأت مصر بالآلاف من جنود الحلفاء في الحرب العالمية الثانية بين عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٥ . ونطق الخدم والباعة والعمال والتجار بالإنجليزية لا يكاد يخلو زقاق في مصر منها ، ومع ذلك فقد بقي كله زبدًا على السطح لا يغوص أبدًا إلى الأعماق ، لأن في أعماق المصريين من حضارته وثقته بنفسه ما يغنيه .

ثم انجسر حكم الأجنبي وتقاهس نفوذه ، وإذا بمصر على ديدنها وعندها تحمل لواء الثقافة العربية والنهضة العربية في أرض العرب من الخليج إلى المحيط . وإذا بها من قوة الروح تتعقب آثار التسلط الأجنبي فلا تبقى عليها ولا تذر ، وتعود اللغة العربية والنفس العربية فيها خالصة صافية ، فلم تصف اللغة من تأثير الأجنبي في قطر عربي بقدر ما صفت في مصر ، فلا يتخذ المصري لفظًا من ألفاظ الحضارة الحديثة وعنده عنه من لغته ما يغنيه ، ولا يكاد يجد في لغته عن الأجنبي بديلاً مقبولا حتى ينصرف إليه . فلقد فضل لفظ السيارة والعربة على الأتوموبيل أو الموتر ، وفضل الثلاثجة على الفريجدير والتكليف على الكنديشن .

وأولى به لذلك ألا ينصرف عن لفظ عربى يعرفه إلى لفظ أعجمى دخيل . فلم يجر لسانه — كما يجرى فى غير مجتمعه لفظ جلاس أو قلاس بديلا عن الكوب على سبيل المثال . فإن أعوزه اللفظ الحديث للمسمى الحديث فإنما ينطق أو يأخذ عن الأجنبى أخذ المريد القادر لما يشاء من بضاعة ينتقى منها ما يرضى ويختار . ولو قد تعاونت الصحافة والإذاعة وكتب المدارس مع المجمع اللغوى لصفت اللغة العربية ولخلص اللسان العربى فى أقل من عشر سنين مما ينبو عنها من غريب الألفاظ .

وفضلا عن ذلك فقد أصبحت لهجة مصر العربية قياسا ونموذجا للعرب المحدثين فى الإسلام كما صارت لهجة قریش قياسا ونموذجا لعرب الجاهلية قبل الإسلام .

وبعد فتلک لمحّة من مصر ومن أهل مصر . فهل أذاك حديث مصر ؟ صلابة وقوة لا تدركها جهالة الحاكم فى صلاقة التجبر والغرور . إذ لا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو سلك سبيل الحيلة وبدا فى مسوح الرهبان .

ولا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو سعى إليهم بالمنصب الجذاب أو البارق من القناطير المقنطرة من الورق والعقيان .

وتمضى عجلة الزمان ويكونون اليوم نعم الأعوان .
كما كانوا فى غابر الزمان .

وهم اليوم إنما يبذلون عن طوعية وإقبال ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . إذ يبذلون من علمهم وخبرتهم لإخوتهم ما عندهم وما يستطيعون ، حيث تفتح مصر أبوابها لمن أقبل عليها يطلب العلم أو الدين أو يطلب الملجأ الهادئ أو المستقر الأمين ، أو ترسل أبناءها بالعلم والخبرة ملبيين مسرعين ، مهندسين ومعلمين ، وقراء للقرآن أو عمالا وصانعين ، لأنهم آمنوا منذ القدم بعون إخوتهم وأشقايتهم مخلصين .

ولقد أقبلت على مصر الشعوب فى عضور قوتها وعصور ضعفها على

سواء ، لأنها كانت دائماً صاحبة شيء تعطيه أو شيء يراد ، فليكن لدينا
أبداً ما نعطيه وعندنا — مع العزة والقوة ما يراد — ولا محالة كي يراد أن يبرأ
من شبهة الزيف ويتنزه عن مظنة التمويه .

ختام :

وبعد . . .

فتلك هي مصر وهذا شأنها وحظها من كتاب الله ومن سنة رسول الله .
ونخلق بها لذلك أن يظل اسمها بعمل أبنائها خفاقاً في العالمين
جذاباً للأقربين والأبعدين ، لأنه اسم شاء الله أن يكون له مكانه من كتبه
ومنزله من أنبيائه ورسله .

وتخفق له قلوب الناس على اختلاف الملل والنحل في المشرق والمغرب
كلما قرءوا ما نزل من كتبهم أو سمعوا لسيرة من سير أنبيائهم . بل إن
المورمون في أمريكا ليردون عقيدتهم إلى ما أوحى إلى نبيهم جوزيف سميث
عن البردي المصري باللسان المصري .

وإن الشعوب لتبذل النفس والنفيس وتنفق جليل الأموال في سبيل
إذاعة أسماء بلادها وبثها في العقول والأفئدة والشفاء .

فكيف بنا وأصر من جذور العقيدة سهم ينفذ إلى سواد القلوب وحنايا
الصدور .

ولنا من ذلك رصيد لا شك ينمو ويتعظم إن تعهدناه وخلصناه من
الشوائب ورعيناه .

تلك هي مصر وهذا قدرها .

تري هل يتردد اسمها بعمل بنينا قوياً في النفوس راسخاً في الأعماق !!

صنعاء يوم الأربعاء ٢٣ من ربيع الأول سنة ١٣٩٣

٢٥ من أبريل سنة ١٩٧٣

ملحق ١

أزمان الفراعين

عصر بداية الأسرات (الأسرة الأولى والثانية) ٣٢٠٠ — ٢٧٧٨ ق.م.

الدولة القديمة :

٢٧٧٨ — ٢٧٢٣ ق.م.

٢٧٢٣ — ٢٥٦٣ ق.م.

٢٤٢٣ — ٣٥٦٣

٢٤٢٣ — ؟

الأسرة الثالثة

الأسرة الرابعة

الأسرة الخامسة

الأسرة السادسة

عصر الفترة الأولى

الأسرات ٧ — ١٠

٢٢٤٢ — ٢٠٦٠

الدولة الوسطى

٢١٦٠ — ٢٠٠٠

١٧٨٥ — ٢٠٠٠

الأسرة الحادية عشرة

الأسرة الثانية عشرة

عصر الفترة الثانية

١٧٨٥ — ١٦٨٠ ق.م.

١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق.م. تقريباً

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

الهكسوس

الدولة الحديثة

١٥٨٠ — ١٣٢٠

الأسرة الثامنة عشرة

١٣٢٠ — ١٢٠٠

الأسرة التاسعة عشرة

١٢٩٨ — ١٢٣٢

رئيس الثاني

١٢٣٢ — ١٢٢٢

مرنيتاح

١٢٢٢ — ١٢١٦

سبي الثاني

ملحق ٢ - الضمائر المصرية والسامية

عربي	مصري	عبري	أرامي	أكدي	سبي	حبشي
أنا	أنوك	أني - أنوكي	أنو - إنا	أنا كي	أنا (؟)	أنا
أنت	انتوك	أنا - أنوكي	أت ، أنت	أنا كي	أنت (؟)	أنت
هو	انتوف ، سو	هو	هو	سو	هو	و اتو
هي	انتوس ، سي	هي	هي	هي	هي	ي ايتو
نحن	أبن	نحن	انحنان	أني	نحن	نحنا
أنتم - انن	انتوتن	أنا - أم	أتن	أني	-	انن
هم	انتوسن	هم	هتوتن	شوتو	هو	أمونتو وايتومو
هن	انتوسن	هنا	هتوتن	شنا	هن	أمانتو وايتوتن

نم انظر : أحمد بدوي : اللغة المصرية القديمة ومكانتها بين اللغات .

Marcel Cohen, *Langues Chemito-Semittiques*, dans les *Langues du Monde*, 1924; *Essai comparatif sur le Vocabulaire et la phonétique du chemito-semitique*. Paris 1947.

Calice, *Grundlagen der Ägyptisch-Semitischen Worterverzeichnis*. (Herausgegeben von Heinrich Balcz.) Wien 1936.

أهم المراجع

١ — القرآن الكريم

٢ — تفاسير القرآن

(أ) تفسير النسفي

(ب) تفسير البيضاوي

(ح) تفسير أبي السعود

(د) تفسير القرطبي

٣ — الكتاب المقدس بترجماته العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية .

Baikie, The Amarna Age. (London 1926)

Barguet, La Stèle de la Famine a Sehel (Le Caire 1953).

Barsanti et Gauthier, Stèles Trouvées à Ouadi Es-Sebouâ (Nubie). Annales du Service des Antiquités de l'Egypte XI (1911) p. 84.

Breasted, Ancient Records of Egypt 5 Vols.

The Dawn of Conscience.

Development of Religion and Thought in Ancient Egypt. (London 1912).

The Ras Shamra Statue of Sesostri-Onekh. Syria XVI, p. 318-320, Paris Tours, 1935.

Brugsch, Die Biblichen sieben Jahre der Hungersnoth (Leipzig 1891).

Camino, Late Egyptian Miscellanies. (London 1954).

Calice, Grundlagen der Ägyptisch-Semitischen Wortverzeichnis (Wien 1936).

Černý, Greek Etymology of the Name of Moses; *Annales du Service des Antiquités de l'Égypte*, T. XLI (1942), p. 349.

Erman, *Gespräch eines Lebensmüden mit seiner Seele* (Berlin 1896).

Erman, *Die Märchen des Papyrus Westcar*.

The Ancient Egyptians. A sourcebook of their writings.
Translated by Aylward M. Blackman (New York 1966).

A. Gardiner, *Egyptian Grammar*. (Oxford 1927).

Egypt of the Pharaohs (Oxford 1961).

Late Egyptian Stories (Bruxelles 1932).

Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles 1937).

Erman & Sethe, *Egyptian Letters to the Dead* (London 1928).

Gauthier, *La Grande inscription dedicatoire d'Abydos* (Le Caire 1912).

Glanville, *Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum*, Vol. II. *The Instructions of Onkhshashanky* (London 1955).

The Legacy of Egypt.

Hayes, *A Papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum* (Brooklyn Museum 1955).

Hieratic Papyri in the British Museum 3rd series, Vol. I & II.

Kees, *Ancient Egypt, A Cultural Topography* (London 1961).

Kitchen, *Ramesside Inscriptions* (Oxford 1971).

Lane-Poole, *A History of Egypt in the Middle Ages* (London 1914).

- Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique (Paris 1949).
- Möller, Hieratische Lesestücke II (Leipzig 1927).
- Montet, Le Drame d'Avaris.
Tanis.
L'Egypte et la Bible (Neuchatel 1959).
- Naville, Pithom.
- Ottley, A Short History of the Hebrews (Cambridge 1932).
- Pritchard, Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament (Princeton 1969).
- Petrie, A History of Egypt — Nebesheh adn Defenneh.
- Ranke, Die Ägyptischen Personennamen, 2 Vols. Glückstadt 1935, 1952.
- Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne (Le Caire 1936).
- Whiston, The life and work's of Flavius Josephus (Philadelphia 1957).
- Williams, (Ronald J.,) Some Egyptianisms in the Old Testament in Studies in Honor of John A. Wilson (Chicago 1969) p. 93 ff.
- Youssef, Merenptah's Fourth year Text at Amada, in Annales du Service des Antiquités de l'Egypte, T. LVIII (1964), p. 273.

- إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية (القاهرة ١٩٢٩) .
برستيد . : فجر الضمير ترجمة سليم حسن .
حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه .
دريوتون وفاندهيه : مصر ترجمة عباس بيومى .
ديلتف نيلسف وفريتزهومل ود . رودوكانا كن وأدولف جرومان :
التاريخ العربى القديم ترجمة فؤاد حسنين على (القاهرة ١٩٥٨) .
سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ترجمة د .
السيد يعقوب بكر
سليم حسن : مصر القديمة .
عبد العزيز صالح التريية والتعليم فى مصر القديمة .

الفهرس

صفحة

- ١ - مقصد الأنبياء ٩
- ٢ - إبراهيم : تخوم مصر ، حمايتها ، القلاع ، العلاقات بين مصر وجيرانها ، خوف إبراهيم على سارة من ملك مصر ، أخلاق المصريين ، حديث النبي في إبراهيم ، هل كذب إبراهيم ، اللغة المصرية تبرر قوله ، عدل المصريين وتقديس الحرمات ، كفاح المصريين في سبيل العدل ، تطور الفكر الذي شهده إبراهيم ١٥
- ٣ - يوسف : عصر يوسف ، الهكسوس وعاصمتهم في مصر دخول الكنعانيين مصر ، قصة يوسف ، مجتمع الدخلاء في مصر ، مجتمع المصريين من آدابهم ، المجاعات في مصر ، بقية القصة ٣٩
- ٤ - موسى : بنو إسرائيل في مصر ، عدو بني إسرائيل ، لمحة من التاريخ ، رمسيس ، مرنبتاح ، فرعون وبني إسرائيل ، مولد موسى ، المراضع في مصر ، تربية موسى وتعليمه ، قتله المصري وفراره إلى مدين ، العودة ، بعث موسى ، لقاء فرعون ، الخروج ، ما بعد العبور ٧١
- موطن بني إسرائيل في مصر وفرعون من القرآن ، فرعون ، فأوقد لي يا هامان على الطين ، فرعون الخروج
- ٥ - موسى والخضر : مجمع البحرين ، اللقاء في مصر ١٤٩
- ٦ - عيسى : إيواؤه وأمه إلى مصر ١٥٤

صفحة

- ٧ - الأرض : مصر في القرآن ، جنات ، وعيون ، وزروع . ١٥٧
 وكنوز ، ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . . .
 ٨ - حكمًا وعلمًا : مصر والشرق ، مزامير داود ، أمثال سليمان ، عبارات . مصرية في العهد القديم وعبادات مصرية
 قبسها العبريون
 ٩ - في سنة رسول الله : أحاديث الرسول في مصر ، القبط . ١٩٧
 المصري والعربي ، زعامة مصر ، الأعداء يقرون بذلك ،
 قوة الإيمان ، الصمود المصري
 ١٠ - ختام ٢١٥
 ١١ - أزمان الفراعين ٢١٦
 ١٢ - الضمائر المصرية والسامية ٢١٨
 ١٣ - المراجع ٢١٩
 ١٤ - الفهرس ٢٢٣

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
 تحت رقم ٤٦٠٤ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
 سنة ١٩٧٣

٤٠٤١١٨/٠١

١٥



Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية



0208481

